

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]

كتاب السنة

في بيان أن سنة سيد الأنبياء محمد رسول الله صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وصاحبيه وسلم، الذي أرسله رحمة للعالمين وفطره على خلق عظيم، وأبدعه أكبر آية من آيات الله العزيز عليم، أصل أول وأصل أجل وأسهل وأصل أعلي وأكمل بين أصول أدلة شرع الإسلام الأربعة.

وفي الكتاب بيان لكل أصل ولكل دليل اعتبره أهل العلم وأئمة الاجتهاد في فقه الإسلام. بإيجاز وإجمال بين واضح يهدي إلى التفاصيل.

يحمل هذا العلم من كل خلف عدوؤه:

1 - ينفون عنه تحريف الغالين.

2 - وانتحال المبطلين.

3 - وتأويل الجاهلين.

لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله. لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتي يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس. (الإمام البخاري رحمه الله والإمام مسلم رحمه الله الإمام أحمد رحمه الله).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد، يسبح له كل الكون بأكمال حمده. والصلاة والسلام علي رسوله محمد أكمل عبده. وعلي آله وصحبه الذين قاموا لله بالله بأوفي عهده ورضي الله عن كل أصحابه المهاجرين والأنصار الذين جاهدوا في الله حق جهاده علي أخلص جده. وعن الذين اتبعوهم بأحسان إلى يوم وعده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله.

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ. وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

أما بعد فإني من قديم الزمن كنت شديد الشغف بالتعلم والمطالعة وبالنظر والتفكر في أمور كانت داخل دائرة استطاعتي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئًا وَّفِرَادَىٰ ۖ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سباء: 46]

فإذا حضرت عند معلم كنت أطلب العلم، خالصًا لوجه الله مخلصًا له ديني. فارغًا قلبي عن كل غرض سوي رضي الله. وإذا اختليت فردًا كنت أقوم لله، ابتغاء مرضاة الله في تثبيت ما تلقيته، وأن في المثاني كان هذه سبيلي أيام الطلب. وأنا إلى آخر نفس من حياتي علي سبيل الطلب. إن شاء الله.

"علي هدي من ربي". "علي بينة من ربي".

وكنت في أوائل سني الطلب أقرأ كتب المذاهب الكلامية والمذاهب الفقهية. وفيها اختلافات قديمة عظيمة، سري أثرها السيء إلى كتب التفاسير وكتب الأحاديث. حتي كانت

تلك الآراء الكلامية أفعالاً على قلوب أبناء الأمة ، تسد باب فهم معاني الكتاب الكريم من آياته البينة وتصد عن سبيل التدبر والتفكر في آيات القرآن الكريم المفصلة المحكمة.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْهَالُهَا﴾ [محمد: 24]

نعم، ليس في اختلاف الأفكار من بأس. إلا إذا اتخذوه ذريعة للتفرق والتنافر وتعادي القلوب. وقد اتخذوه وقد فعلوه. وقد غال في ذلك غلوًا فاحشًا إذ اكتفروا والتعنوا وإذ اقتتلوا.

يقول صاحب اللزوميات، ولا ينبئك أحد مثل خبير:

غَنِينَا عُصُورًا فِي عَوَالِمِ جَمَّةٍ، فَلَمْ نَلْقَ إِلَّا عَالَمًا مُتَلَاعِنًا

إِذَا فَاتَهُمْ طَعْنُ الرِّمَاحِ، فَمَحْفِلٌ تَرَى فِيهِ مَطْعُونًا عَلَيْهِ وَطَاعِنًا

هَنِينًا لَطْفَلٍ أَرْمَعَ السَّيْرَ عَنْهُمْ، فَوَدَّعَ، مِنْ قَبْلِ التَّعَاوُفِ، ظَاعِنًا

وكان عقلي ينفر ويذهب مغاضبا وصدري يضيق مضطربًا **حزنًا** إذ كنت أري أن الكتب الكلامية تنتقص شديد الانتقاص الأدلة النقلية إذ تقول: أن النقل لا يفيد العلم ولا يفيد القطع أصلاً. تدعي ذلك بتشكيكات وهمية واشتباهاة سوفسطائية لا يلقها في الأماني إلا شياطين الأوهام. وأدلتهم العقلية في علم الكلام كلها نقول منتحلة من كتب الفلسفة القديمة اليونانية. لا نعلم: هل كان المترجم الناقل يتقن لغتها القديمة ويفهم حق الفهم كل معانيها. وما يسميه علم الكلام دليلاً عقلياً هو في أصله ظلمات بعضها فوق بعض. وقد تبين اليوم بطلان أكثرها في الإلهيات والفلكيات والطبيعات. ونقول علم الكلام من الفلاسفة أضعف بكثير من نُقول رواة الأحاديث في كتب الأحاديث.

يقول صاحب اللزومات، ولا ينبئك أحد مثل خبير:

غَدَتْ حُجُجُ الْكَلَامِ حَجَا غَدِيرٍ وَشِيكًا يَنْعَقِدْنَ وَيَتَّقِضْنَ

وانتقاص الأدلة النقلية في مقابلة الأدلة العقلية سهّل علي متكلم من الفرق الكلامية وعلي فقيه من المذاهب الفقهية أن يتهور. علي رد النقل بأوهن شيء يتوهمه، وسهل علي

المخالف أن يتهور على وضع نقل لأوهن وأهون شيء يدعو إليه. حتى بلغ الأمر إلى أن انشقت من بين هولاء واستقت فرقة تسمت بأهل القرآن تنكر الأحاديث الثابتة، وتنكر السنن، وتنكر كونها أصلاً من أصول أدلة شرع الإسلام في إثبات الأحكام، وما تسمت بلقب أهل القرآن إلا بمجرد إنكارها سنن صاحب القرآن الكريم. وقد رأيت البعض من هذه الفرقة أترك للكتاب الكريم من تركه سنن صاحبه العظيم. فيكون هذا اللقب تركية منكراً تشبه الاستهزاء بالقران الكريم.

(1) وما قامت علي وجه الأرض في عصر من العصور أمة متوحشة أو متمدنة إلا وكانت حياتها جارية علي سننها فاسدة كانت أو سالحة: علي سنن أسلافها أو علي السنن التي نسجها حكماءها علي السنة الحكمة في أساطيرها، أو علي السنن التي تقلدتها أمة من مجاورها فالسنن في حياة الأمم إجماع طبيعي والشرائع القديمة وقوانين الأمم المتمدنة كلها منسوجة من اعمال أسلافها ومن عوائدها وأوضاعها الحكيمة التي توارثتها خلف عن سلف. فالسنن في الشرائع والقوانين أصل الأصول. وهي في شرع الإسلام أصل أول بين الأصول الأربعة. والكتاب الكريم يؤيد الأصل الأول ويثبته.

فانتهزت هذه الفرصة المناسبة، إذ كان الله جل جلاله ألقى علي قلبي أمل أن أكتب هذا الكتاب: كتاب السنة لبيان أصول شرع الإسلام في إثبات الأحكام.

الحمد لله الذي هدانا لهذا. وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ائْتِمْنَا لَنَا نُورًا وَاعْفِرْ لَنَا ۗ إِنَّكَ عَلَيٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: 8]، ﴿عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 24].

وهذا الكتاب في بيان أدلة شرع الإسلام في إثبات الأحكام، علي إيجازه وعلي غاية اختصاره، سيكون، إن شاء الله، باباً بسيطاً من أبواب كتب الأصول وكتب أصول الحديث.

لا يغادر حجة صغيرة ولا كبيرة من أدلة شرع الإسلام إلا سيحصيها إن شاء الله. وسيوفي كل الأدلة بأوفر حظها من البيان، إن شاء الله.

حسبي الله ونعم الوكيل. نعم المولي ونعم النصير

سأمضي على شرطي. وبالله اكتفي.

وما خاب ذو جدٍ إذا هو حسبلا

السنة (1)

سنة الله: هي الطريقة التي اتخذتها حكمة الله في تدابيره وفي كل شؤونه في العالم أو في الأمم: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ ۗ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

سنة الأولين لها الكتاب الكريم معنيان:

1 - ليهديكم سنن الذين من قبلكم - هي السنن التي بنت عليها الأمم نظام حياتها في القديم.

2 - هي سنة الله في الأمم السابقة بإهلاك الغلاة والطغاة وبأخذ العتاة والعصاة. هي سنة الله في الأمم السابقة بالإثابة في الأمم المصلحة العادلة.

والقوانين الطبيعية التي نشاهدها في نظام العالم وفي كل الكون كلها سنة الله التي بني عليها حكمة الله نظام الكون في كل الكائنات. كلها سنة الله وكلها عادة إلهية..... ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ وهي غير منحرفة، وهي غير منتقضة. وهي غير ناقضة لقدرة الله القاهرة. وهي غير مانعة لنفوذ إرادة الله القاهرة الغالبة العزيزة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

والقانون الطبيعي في حكم الله وفي أمره له حياة وله موت. مثل الحيوان. والله يحييه ويميت. فالنار مثلاً، إذا استحالت هواء، فقد ماتت فلا تحرق. ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]. والماء إذا تبخر ببرودة أو بحرارة فلا يغرق ولا يقتل ذا تنفس. وليس في شيء من أمثال ذلك لا خرق ولا إعجاز. بل كل ذلك في سهولة حدوثه وسرعة وقوعه "كَلَمَحٍ بِالْبَصْرِ" بل أسهل وأسرع.

هذه معني سنة الله. أما سنن نبي الإسلام صاحب القرآن الكريم محمد صلي الله عليه وعلي آله وصحبه، وصاحبيه وسلم. فهي طريقة النبي الكريم وسيرته التي كان يتحراها وكان يتوخاها في تبليغ رسالته إلى الأمة وإلى العالمين بأفعاله النبوية وأقواله الحكيمة وإقراره عمل العامل بعد أن علمه، وبكتبه إلى ملوك عصره وإلى القبائل.

فكل ما كان يفعله ويتحراه ويتوخاه في تبليغ ما أوحى إليه، وما أنزل عليه وفي تبليغ رسالته إلى أمته وإلى العالمين كل ذلك سننه وسيرته في حياته الذاتية، وسيرته في معاملاته الناس الاجتماعية وسيرته في حاجاته وضرورياته كل ذلك من سننه النبوية. مندرج تحت عموم قول الله ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]

ورأس سننه وأرفع سننه وعمدة سننه وينبوع كل تعاليمه: هو كتابه الكريم. قرآنه العظيم المجيد المحفوظ في مصاحفه الكريمة المكرومة المرفوعة المطهرة في أيدي سفر كرام بررة، وفي صدور الذين أوتوا العلم وفي قلوب أمته الكريمة المعصومة بحفظ الله جل جلاله.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]

والقرآن الكريم العظيم هو أكبر ميراث النبي لأُمَّته ولكل العالم:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]

والسنة بهذا المعني هي المراد في قول أهل العلم: "أهل السنة والجماعة" يدخل فيها كل ما تركه بني الإسلام لأُمَّته الكريمة وأورثه كل الأمم في العالم.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]

والجماعة في هذه الجملة الجميلة المقدسة الموجزة هي الوحدة: وحدة الأمة التي ألف الله جل جلاله بين قلوبهم، والتي فرض النبي الكريم علي أمانتها أمور دينه وفوض علي اختيارها وعلي أيديها أمور دنياها.

فمن نقض هذا العهد وخرج وشد من هذه الوحدة وخالف الجماعة فلن يكون من أهل السنة ولن يكون من أهل الجماعة. ومن ينكر سنن نبي الإسلام صاحب القرآن العظيم فليس له أن يتسمي وليس له أن يتوسم وأن يتسم باسم أهل القرآن.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ في سورتي الأنعام والروم.

فارقوا من باب المفاعلة في قراءة الإمامين حمزة والكسائي، ومن باب التفعيل في قراءة الجماعة. والتفريق والمفارقة متقاربان في المعني. فإن من فرق دينه بآمن بالبعض وأنكر البعض فقد فارق الدين الذي أمر الله به الناس، وفارق الدين الذي أورثه نبيه أمتة وكل العالم فمن ينكر السنن فلا يتسم ولا يتوسم باسم أهل القرآن.

سيرة النبي الأمي الأمين

في كتاب الله المبين (2)

أريد في هذا الفصل الفرد أن أثبت بهداية الله إن الله جل جلاله أثنى وثنى علي عبده ورسوله بأعظم اثنية في كل آيات كتابه العظيم.

وكان من أحسن أدب الكتاب الكريم في الثناء علي عبده ورسوله إن لم يأت في آية من آياته بعبارة تسويده وعبارة تفضيله علي أحد من عباد الله. وإن ذكر تفضيل اليهود علي العالمين، وإن نزل في الكتاب الكريم آيات في معني قول الله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ

عَلَى بَعْضٍ ﴿البقرة: 253﴾ ولم يسم الكتاب الكريم أحدًا. وإذ ذكر الرفع لم يذكر فوقية المرفوع علي البعض الآخر.

هذا أدب حسن نزيه جليل. لا يراعي مثل هذا الأدب إلا العزيز العليم الحكيم، وهذا فضيلة لم تكن إلا من: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

2 - أول آيات وأول سورة نزلت وفتحت باب الرسالة علي عبده وفتحت كل أبواب الرحمة علي العالمين هي سورة العلق.

عظم عبده ورسوله في هذه السورة غاية تعظيم وأجله أعظم إجلال بتخصيص خطاب العزة وخطاب العظمة ثلاث مرات علي ذاته الكريمة وبإضافة ربوبيته وكرمه إضافة تمدح إلي نبيه الذي اصطفاه رحمة للعالمين. وذكر من آثار كونه رحمة ومن آثار ربوبيته وكرمه القراءة والكتابة وتعليم ما لم يكن يعلم.

والإنسان في السورة نوع البشر. وإذ لم يضمه في الخامسة فالأغلب إنه هو عبده الذي فتح له باب رسالته وفتح به أبواب رحمته للعالمين. وعلمه، وبه وبركاته علم كل العالم ما لم يكن يعلمه أحد قبله. وهذا ثناء من الله عظيم لم ينزل لأحد وفي أحد من الرسل والأنبياء قبله.

3 - ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَحْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنُونَ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 1 - 4].

أقسم الله جل جلاله في أول ثانية سورة نزلت في آياتها الأربع ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وخلق عظمه الله الملك العزيز العليم لا يكون إلا من أعلي الأخلاق وأفضل الأوصاف وأحسن الملكات وأكمل الكمالات. ولم يثن الكتاب الكريم بمثل هذا الثناء العظيم علي أحد الأعلي من اتخذه الله جل جلاله رسولاً إليه في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ * الْجَوَارِ الْكُنُوسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: 15 - 21]. فالثناء بمثل هذا الثناء

علي رسوله روح القدس توطئة تمهيداً وتوسلاً بها إلى الشاء علي صاحب الكتاب الكريم الذي اصطفاه رسولاً رحمة للعالمين.

ذكر الله جل جلاله مثل هذا الشاء في أول سورة من كتابه العظيم ليعين أن دين هذا الكتاب يكون مؤسساً مبتنياً علي أحسن خلق عظيم.

4 - آخر آية نزلت في آخر سورة نزلت في كتابه الكريم خطاباً للناس كافة وخطاباً للعالمين جميعاً هي قول الله جل جلاله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۗ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 128 - 129] سورة التوبة آخر سورة نزلت بالمدينة. في أول يوم من شوال السنة التاسعة من الهجرة. خاتمة التوبة فسرت تفسيراً حكيماً أول آيات في ثاني سورة نزلت بمكة في أوائل السنة الثالثة من المبعث ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] وذكرت من أخلاقه العظيمة بعض ما يكون به رسوله رحمة للعالمين، وبركة وهداية، ويكون به صلاح العالمين علي وجه الأرض، وسعادة كل العالم في العاقبة.

والآيات الثلاث (107: 109) من سورة الأنبياء التي نزلت في أواخر عهده بمكة بينت وأثبتت ثابت شجاعته عند قوة أعدائه. والنبي الكريم لم يكن له في ذلك العهد قوة وعدة يراها أعداؤه القوية. وقد أوعدهم وأذهم بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۗ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

وخاتمة سورة التوبة أعلنت عظيم كرمه وغاية إحسانه وهو غالب عزيز بيده كل القوة وأشد أعدائه ذليل عنده كل الذلة: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۗ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

ولم يكن علي وجه الأرض من رسول فاتح عزيز غالب قاهر كان له مثل هذا الكرم والإحسان وعظيم الشهامة والهمة.

ولم يكتب أحد من كتب سيرة صاحب القرآن العظيم كتاب سيرة مثل ما أثني الله جل جلاله عليه في كل آيات كتابه الكريم.

5 - ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۗ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

والذي عظمه الله في القرآن العظيم بكلماته الإلهية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ "ليس يوجد في ألسنة كل العالم مقياس يمكن تقريب حد عظمته به. إلا " لا حد له ولا نهاية.

6 - وهذه الآيات الكريمة وكل متشابهاتها في الكتاب الكريم قد جاء تفسيرها ببيان سهل مفهوم لكل أحد في ما رفعه إليه أهل الحكمة وأهل الاعتبار وأهل الإشارة: إن النبي الكريم قال بلسانه الحكيم:

"أدبني ربي فأحسن تأديبي إذ أوصاني من لدنه ولم يكن واسطة بسبع خصال:

1 - بحشية الله في السر والعلانية.

2 - وأن أصل من قطعني.

3 - وأصفح عن من ظلمني.

4 - وأعطي من حرمني.

5 - وأن يكون نطقي ذكراً.

6 - وصمتي فكراً.

7 - ونظري عبرة.

فكان النبي الكريم الرؤوف الرحيم، بحكم ما فطر وجبل عليه، وبحكم ما بعث ووصي به، ملتزماً لكل هذه الخصال السبع كان يعفو من ظلمه، ويصل من قطعته، ويعطي من

حرمه. إلا إذا أعلن له ترك ذلك عزمًا، وعزم الله عليه أن يرجع إلى حق العدل وإلى الاقتصاص والمواخظة بالحق والعدل علي وفاق سنة الأولين.

7 - الله جل جلاله له في كتابه الكريم وصفان: 1 - وصف جمال، 2 - وصف جلال:

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۗ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49 - 50]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: 43].

8 - فكانت آيات الكتاب الكريم تنزل علي النبي الحكيم ذي الخلق العظيم من بابين: من باب خطاب الوصية علي وفاق خلقه العظيم. والوصية اللدنية هي التي كان النبي تلقاها من لدن حكيم عليم بلا واسطة: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58].

والوصية تكون من فضل الله علي عباده وفاقًا علي خلق نبيه العظيم إذ أرسله رحمة للعالمين برحمته وجماله:

من باب العزة من باب خطاب الكتاب علي وفاق سنة الله في الأولين. ليكون دين الكتاب الكريم وشرع القرآن العظيم جامعًا بين فضل الله ورحمة الله للعالمين وبين عدل الله العزيز العليم الحكيم علي وفاق سنة الله في الأولين. ليكون شرع **لإسلام** جامعًا بين جمال الله وجماله.

9 - فكل ما نزل من باب خطاب الوصية علي الوجه الذي جبل عليه وبعث له ووصي به تعاضدت فيه الوصية اللدنية وخطاب الكتاب. وقبله النبي الكريم الرؤوف الرحيم طبعًا وحالًا وعلماً وعملاً. ولا تكون له عنه وقفة. لتظافر الأمرين وتوافق الخطابين: خطاب الوصية اللدنية وخطاب العزة الإلهية.

10 - وهذا الوجه من التنزيل خاص بالقرآن العظيم. والقرآن العظيم اختص الله به عبده ورسوله خاتم النبيين محمدًا صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وصاحبيه. ولم يؤته أحد قبله:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87] آتيناك، لا أحدًا غيرك من الأنبياء والرسل قبلك.

11 - ومن آيات الكتاب الكريم ما أنزل علي حكم عدل الله واقتضاء الحق علي سنة الله في الأولين. وذلك خلاف ما جبل الله وفطر نبيه عليه، وخلاف ما وصي به الله حبيبه. فكان النبي الكريم إذ نزل عليه آي من الكتاب علي إمضاء عدل الله وعلي اقتضاء حقه الشرعي ترقب تخفيفه وترجي تيسيره. حتي يعلن عليه بالعزم في أخذه وبالتزام حكمه في إمضاء عدله واقتضاء حقه. فحينئذ يقوم لله به. ويظهره في إمضاء العدل وفي اقتضاء الحق الشرع.

12 - فيكون له صلي الله عليه وآله وسلم في خطاب التشديد عليه في أخذه بالعدل وبالحق أعظم مدح وأبلغ ثناء من الله. ضد ما يتوهمه الجاهلون: إنه عتاب. بل هو ثناء علي عبده وحبيبه بعظيم ثباته علي الوفاء بعهد الله وبالوصية. فإن النبي الكريم لم يكن ينصرف عن حكم الوصية إلي حكم الكتاب بالحق إلا عن عزم من الله وإشارة. فالنبي الكريم محمود بما هو منهى عنه. لأن خطابه في القرآن الكريم أبدًا فيما بين الفضل والعدل. وخطاب سائر الناس في ما بين العدل والجور.

13 - من الآيات الكريمة التي نزلت من باب خطاب الوصية قول الله ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: 34]، وقول الله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 96]، وقول الله: ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص: 54]، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۗ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۗ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿آل عمران: 159﴾، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
 أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: 6]، ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا
 تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۗ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
 ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80].

كان النبي الكريم شديداً شاقاً عليه عنتهم وتعبهم. وكان قوي الحرص علي رشدهم
 ونفعهم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾.

14 – والمعني الحقيقي في آيتي الاستغفار في سورة المنافقين وسورة التوبة هو الإذن
 والإباحة والتخيير في الاستغفار وفي ترك الاستغفار.

وقول الله: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ في آية سورة التوبة تحديد بمقدار معناه خاص قطعي لا
 ينصرف عن حقيقته إلا لضرورة ولقرينة.

والنبي الكريم الرؤوف الرحيم فهم فهم النبوة من نظم هاتين الآيتين إذن الاستغفار.
 وجعل نفي المغفرة مقيداً بقيد السبعين فقط. فاستغفر لابن أبي وقام وصلي علي قبره. ورأي
 التمسك في النظم والتحديد بالمعني الحقيقي أولي وأوفق لما في الرأفة والرحمة بالخليقة أجمل
 سيرة وأحسن طريقة. والإمام عمر الفاروق؛ إذ لم يفهم في النظم والعدد إلا المعني المجازي
 اجترأ علي النبي الكريم، وأخذ يعدد أقوال ابن أبي وأيامه في نفاقه، والنبي الكريم العظيم
 يتبسم. حتي إذا أكثر عمر رضي الله عنه في كلامه، قال يا عمر أخرجني إني قد خيرت، قد
 قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فإن
 أعلم أني إن زدت علي السبعين غفر له، لزدت عليها.

15 – النبي الكريم الرؤوف الرحيم عمل بالمعني الحقيقي فإن المعني الحقيقي أوفق بخلقه
 العظيم وأثبت لخطاب الوصية. والفاروق، وله موافقات لحكم الله، كان فهم المعني المجازي في
 النظم والعدد، ووافق في هذه المرة لخطاب الكتاب علي سنة الله في الأولين.

وهذا عدل شاهد وأدل برهان علي كون المعني المجازي والمعني الحقيقي مصيباً في كلام واحد بليغ معجز. فإن الكلام لله، والعمل بمعناه الحقيقي لنبيه ورسوله، والمعني المجازي، الذي أقره رسول الله ووافقته خطاب الكتاب الكريم لا فقه خليفته. النبي الكريم أقره بالتبسم. وأخره إذ لم يفهم الفاروق صحة المعني الحقيقي أيضاً. فاجتراء الفاروق علي رسول الله، وتبسم النبي الكريم في جوابه، ثم تأخيره بقوله النبوي: إني قد خيرت هذه الأمور الثلاثة يمكن أن يتخذها الفقيه أصلاً مهماً في الاجتهاد في أصول الفقه، ويمكن أن يتخذها أهل الأدب أصلاً في المعاني والبيان

16 - من الآيات الكريمة التي نزلت باثنية من الله العزيز الحميد علي نبيه الرؤوف الرحيم: قول الله: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6] قول الله: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3]، وقول الله: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّاكَ بَدِينًا مِّمَّا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: 97]، وقول الله: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۗ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۗ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [هود: 17]، وقول الله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۗ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: 99]، وقول الله: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: 94].

ومعني كل هذه الآيات وأمثالها: لا تتوقف لطلب الرحمة لهم، كما يتوقف الممتري في الشيء، وكما يتوقف الشاك فيه.

فهذه الآي وأمثالها يسمعها العالم بمواقعها علي إكراه النبي الكريم نبي الرأفة ونبي الرحمة حتي يرجع إلى إمضاء عدل الله وإلي اقتضاء حق الله.

17 - فالله جل جلاله يثني علي نبيه وعبداه الكريم بكل آيات كتابه الحكيم وبكل قرآنه العظيم. والقرآن الكريم عظيم قد جمع كل ما تضمنته كتب الأولين. والقرآن الحكيم

بكل آياته الكريمة يشهد بكمال وفاء النبي بعهد الله وبوصيته. حتى يحقق لعبده ورسوله وصف نبي الرحمة لثباته علي الوصية، ووصف نبي الملحمة لإمضائه عدل الله، ولاقتضائه حق الله.

والله جل جلاله بكتابه العظيم الكريم رفع قدر نبيه من أن يضع رحمة الله موضع استحقاق نومه، ومن أن يضع نغم الله موضع رحمته وهذا أعظم ثناء من الله وأفضل تزكية وأكبر شهادة. لم يكن لأحد قبله.

18 - كان النبي الكريم الرؤوف الرحيم لا يزال يتألف قلوب صناديد قريش، ويستميل قلوب كبار القبائل. حتى يكره علي ترك ذلك بخطاب علنٍ. وقد نزل فيه كل سورة عبس (80: 42) فإن القصد الأول في التعليم وفي تبليغ الرسالة إنما هو تعليم من جاء يسعي وهو يرغب ويخشى. والله جل جلاله في كتابه الكريم يقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، والمغرور بدعوي شرف نسبه، أو بعلو حسبه، أو بكثرة ثروته فتكبره بكل واحد من هذه غير حق. وكله باطل.

والنبي الكريم تصدي لكبير قبيلة قد استغني رجاء اهتداء القبيلة باهتداء كبيرها. وما تلهي عن الأعمى إلا زمناً يسيراً لأن النبي الرؤوف الرحيم كان يعرفه وقد كان يتوسم فيه الخير. فانظره إلى ثواني قليلة لينال الأعمى شرف الصحبة. فكان عمل النبي الكريم سبب نزول سورة مفردة أثني بها الله علي نبيه العظيم وكرّم بها الأعمى ومن يعمل مثل عمله تكريماً لمن يكن لبصير.

ومن عبس؟ - ومن هو الذي تولى؟

يمكن أقرب إمكان أن يكون ضمير الغائب كناية عن ذلك المتكبر الذي اغتر بنسبه وماله واستغني عن الحق وعن الاهتداء بدلالة قول الله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ فإن الوجه المليح وجه النبي الرؤوف الرحيم لم ير أحد علي وجهه الأملح أثر عبوسة أصلاً. واشتغال النبي الكريم بشيء عن آخر لا يعبر عنه الكتاب الكريم بالتولي. فإن التولي هو الفرار

أو الإعراض عن الوظيفة. والنبي الكريم في تصديه لذلك المتكبر المستغني كان مشغولاً بوظيفة تبليغ رسالته لكبير من صناديد قريش رجاء اهتداء قريش.

أقول ذلك. وهذا هو أدب الأمة في فهم معني الكتاب الكريم وفي احترام النبي العظيم. ولعل قائلًا من أهل الأدب يقول: إن الكتاب الكريم عبر عن عمل النبي في تلك الحادثة بالتولي علي أسلوب المزوجة مثل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ لأن طغيان ذلك المتكبر كان أعظم تول وكان إعراضًا وفرارًا عن حق وجب.

ونحن لانستجيز التعبير علي أسلوب المزوجة إلا إذا حصل به معني حكيم مهم مطلوب. مثل قول الله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ فإن إطلاق السيئة علي الجزاء المشروع الحق إرشاد إلى فضل العفو. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

19 - ومن الآيات الكريمة التي نزلت بثناء عظيم علي نبيه الكريم في تألفه القلوب قول الله جل جلاله في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ [الأنفال: 67] ثلاث آيات.

سبب نزول هذه الآيات الجليلة، وقصة استشارة النبي الكريم الصحابة الكرام في الأسري يوم بدر مستفيضة حكيمة، فيها عبر مؤثرة وفيها فوائد علمية سياسية اجتماعية.

20 - دعا النبي الكريم الصحابة الكرام، فقال: يا أيها الناس، إن الله أمكنكم منهم. فما ترون فيهم؟ فقال أبو بكر فقال يا رسول الله قومك وأهلك. فاستبقهم. لعل الله يتوب عليهم. وقام عمر الفاروق وقال يارسول الله، كذبوك وأخرجوك وقاتلوك قدمهم واضرب أعناقهم. والعباس عم النبي عليه الصلاة والسلام سمع قول الفاروق فقال قد قطعت رحمك فدخل النبي الكريم، ولم يرد علي أحد شيئًا. ولعل ذلك كان لأن كلام كل من الصديق والفاروق كان معقولاً موجهًا. فقال جماعة: يأخذ بقول الصديق، وقال جماعة يأخذ بقول القاروق. وخرج النبي الكريم الرؤوف الرحيم فقال: إن الله ليلين قلوب رجال في الله حتي تكون ألين من كل لين، وإن الله ليشدد قلوب رجال في الله، حتي تكون أشد من الحجارة.

مثلك يا أبابكر مثل إبراهيم عليه السلام، إذ قال: فمن تبعني فإنه مني. ومن عصاني فإنك غفور رحيم. ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: 26]. ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام، إذ قال: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: 88].

ثم قال النبي الكريم لمن بأيديه من الأسري: "أنتم عالة فلا يفتلن أحد منكم إلا بفداء أو بضرب عنق" وقال عبد الله بن ورواحة إلا سهل بن بيضاء. فسكت رسول الله. ثم قال إلا سهل بن بيضاء. فأنزل الله الآيات (67: 71) في سورة الأنفال.

21 - روي الحاكم في مستدركه والبيهقي في سننه عن علي رضي الله تعالى عنه: أن النبي الكريم قال للناس في يوم بدر: إن شئتم قتلتموهم. وإن شئتم فاديتهم واستمتعتم بالفداء. ثم يستشهد منكم بعدتهم.

وقد استشهد منهم عدد في أحد. وكان آخر السبعين ثابت ابن قيس. استشهد باليمامة. والاستشهاد لأجل أخذ الفداء شاهد عادل أمين كبير في عدل الإسلام وفي علو أحكامه وثباتها علي الدوام.

22 - ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: 67] هذه الجملة الجليلة إرشاد في السياسيات والاجتماعيات جليل جميل حكيم.

عرض الدنيا في هذه الآية الكريمة يعرفه كل أحد. وما هو عرض الآخرة الذي يريده الله العزيز جل جلاله؟

واعتقد يعين اعتقاد وأومن إيمان علم أن الآخرة هي حكمة الشارع وغايته الأصلية الإلهية من شرع الجهاد. ولم يشرع الجهاد إلا ليحق الحق ويبطل الباطل. يقول الله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿﴾
[الأنفال: 7 - 8]

يريد الله أن يحق الحق بكلماته لا بسيفه. ويريد أن يقطع دابر الكافرين، ويبطل الباطل بسيفه، لا بمجرد كلماته. هذه الآية الكريمة تفسير سائر الآيات. فالآخرة هي عزة الإسلام وهي غلبة الإسلام، وإبطال الكفر وإبطال نظامه الباطل.

23 - ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68]

ما هذا الكتاب الذي سبق من الله؟

فيه لأهل العلم أقوال. ولك قول يمكن أن يكون صحيحًا. والبعض أصح وأحكم من بعض.

قيل: هو وعد الله نبيه أن يغفر لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر.

قيل: هو قول الله في كتابه الكريم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ (6: 54)

قيل: هو حكم الله أن لا يعذب الله أحدًا بذنب فعله جاهلاً.

24 - قيل إن الكتاب الذي سبق من الله يمكن أن يكون حكم الله بحل الغنائم.

وذلك إن دم كل أحد وماله كل أحد في حكم شرع الإسلام معصوم عصمة ذاتية. لا يحل لك أن تستحل دم أحد ولا ماله إلا إذا استحل هو دمك أو استحل مالك. من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا. (5: 32)

25 - وما أحل الله الغنائم ولا أحل أخذ الفداء من أسير يفتدي في سبيل نجاة إلا إذا كان في حرب الدفاع: في دفع اعتداء المعتدي، أو في حرب رفع الفساد السائد لأجل إقامة النظام الصالح العادل.

26 – أما في جهاد الدعوة فالجهاد الذي يجاهد في سبيل الله ينصر الله وينصر رسوله، فشرع الإسلام رفع قدر إيمان المؤمن من أن يطمع في غنيمة، ومن أن يريد عرض الدنيا. ليكون إيمان المؤمن في جهاده خالصاً من شرك الطمع.

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوي فمن كان هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

ولم يشرع علم في الإسلام إلا لله ولوجه الله ولرضي الله. فإن أتى به المؤمن وأشرك في نيته غرضاً آخر فالعمل لا يكون لله ولوجه الله. ويكون العمل مردوداً، ويعده الشرع عملاً لذلك الآخر. يعتبر العامل مشركاً بنصوص محكمات القرآن الكريم. والله غني عن كل عمل أشرك العامل في نيته غير رضي الله، عرضاً من أعراض الدنيا. والعمل يعد عملاً لذلك العرض. لا لله.

هذا معني قول الله: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۗ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشوري: 20]، ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [الأنفال: 67].

والآخرة في هذه الآية الكريمة هي قول الله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: 7 - 8]، فالآخرة علي تفسير هذه الآية هي عزة الإسلام وغلبته، وإبطال الكفر لإبطال نظامه الباطل.

ونوال الغنائم والاستمتاع بالأفدية تأخر كمال الآخرة، وتحقق قول النبي الكريم: إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتهم واستمتعتم بالفداء ثم يستشهد منكم بعدتكم.

وقد وقع اقتصاص في أحد، وفي غزوات بعد بدر. ثم تأخر كمال الآخرة إلى فتح مكة.

27 - والنيي الكريي الرؤوف الرحيي بعد أن استشار الصحابة الكرام في أسر بدر، وبعد أن عرف ميول الصحابة، تألف قلوب الصحابة الكرام فقال: ما شئتم فلكم. فقتل البعض أسيره، وأخذ البعض الفداء من أسيره. فنزل: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: 67 - 68]

وإذ كان مراد الله قطع دابر الكفر وإبطال نظامه الباطل خص العذاب بأخذ الفداء، فقال: ﴿سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقتل الأسير إذ كان موافقاً مراد الله في قطع دابر الكفر، لم يجعله الكتاب الكريم سبباً لمس العذاب العظيم.

وإذ كان الله جل جلاله ملاً قلب نبيه بالرأفة والرحمة لأمته راعي الله ما يرضاه نبيه وما يهواه حبيبه، فلم يمس الأمة عذاب عظيم. وقال الله جل جلاله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أحل لهم ولم يعذبهم. إذ سبق منه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33].

27 - واقعة بدر هي أول حرب وقعت في صدر الإسلام ، وأول حرب فتحت باب العزة علي وجه الإسلام، وأول واقعة عوتب فيها المجاهدون بالطمع ومد الأعين [الأعيون] إلي أمتعة الأعداء بقول الله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وعوتب المجاهدون بإرادة عرض الدنيا - ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. سورة الأنفال أول سورة نزل في آياتها الكريمة بيان الغاية الإلهية من شرع الجهاد في الإسلام، ونيي الإسلام نبي الرحمة والرأفة والمرحمة. والتوراة قد بشرت به في قولها: واستعلن من جبال فاران. معه ربيون أظهار في يمينه سيف من النار. والتوراة وصفت نبي الإسلام بأنه نبي الملحمة. ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلي: 18 - 19]، ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: 133].

29 - ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا﴾ [الأنفال: 8] الطائفتان:

- 1 - غير قريش من الشام تحمل الميرة وأمتعة التجارة ولم يكن للغير قوة تدافع عنها.
- 2 - نغير قريش. وهم أكثر من أصحاب بدر وأقوي. وعد الله نبيه أن تكون إحدى هاتين الطائفتين له ولأصحابه وود أصحاب بدر أن العير كانت لهم وإن القتال صرف عنهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أن يقيم علي وجه الأرض الإسلام وتعاليمه الحقّة بكتابه وآياته البينة. لابسيفه.

﴿وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾. ويريد الله أن يقطع دابر الكفر ودابر الكافرين بسيفه لإبطال الكفر ولإبطال نظامه الباطل لإقامة الإسلام وإقامة نظامه العادل الصالح.

هذه هي الغاية الإلهية العالية من شرع الجهاد في الإسلام. لم يشرع الجهاد الإسلام لإكراه الناس علي الإيمان. ولم يشرع قتل أحد لإكراهه علي قبول الإسلام. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

30 - السيف في الظلم والاعتداء والفساد شر شيء ملعون. أما في رفع الفساد ورفع النظام الفاسد، وفي دفع الظلم ودفع اعتداء المعتدي فالسيف خير شيء مقدس.

وليس للسيف مجرد جوهره حكم. وكونه خير شيء مقدس أو شر شيء ملعون تابع للمقصد: في الظلم شر شر، وفي دفع الظلم ودفع الفساد خير خير.

والكتاب الكريم الحكيم والنبى الكريم الرؤوف الرحيم العظيم في الدعوة إلي الإسلام لم يتوسل ولم يتذرع بالسيف أصلاً.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]

31 - والله جل جلاله في كتابه الكريم في آيات سورة المائدة أمر نبيه ورسوله أن يتلو ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: 27 - 30] علي اليهود وعلي أهل الأديان. وقصة تكوين التوراة في ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ حكمة عجيبة. ولم يقل الكتاب الكريم: سلهم بل قال ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لأن القصة في القرآن الكريم نزلت تداركاً لما جاء في التوراة، ونزلت بالحق الذي خاب عن أعين اليهود. وفي أكثر قصص القرآن الكريم تدارك علي ما في الكتب السابقة.

والكتاب الكريم في سورة المائدة قبل هذه الآيات الأربع (27 - 30) أدب اليهود في الظلم والبغي والاعتداء علي النبي موسى وعلي ربه بأمثال قولهم: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. وذكر في سائر السور بخل اليهود علي سائر الناس، وحسد اليهود فضل الله علي الناس كافة: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 53 - 54] وذكر الكتاب الكريم في أول هذه الآيات الأربع (27-30) مثلاً لأدب أجداد اليهود في البغي والاعتداء والبخل والحسد أدب الابن الآخر من ابني آدم الذي قتل أخاه بخلاً وحسداً وبغياً.

وقد كان الكتاب الكريم ذكر في الآيات العشر الأول من سورة الشمس ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7 - 10].

ذكر الكتاب الكريم إن الله جل جلاله قد زرع حبات فحور النفس في طينة الإنسان بإلهامه وحكمته، وزرع حبة تقوي النفس في طينة الإنسان بإلهامه وحكمته فقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ وقال إن الابن الآخر طوعت له نفسه الفاجرة وسهلت له قتل أخيه. فقتل أخاه ثم لم يندم من قتل أخيه، وإنما ندم علي عجزه من دفن سواة أخيه ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۗ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

وذكر الكتاب الكريم في أحد ابني آدم قوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّعِينَ * لَنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۗ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

ما أنا بباسط – وإنما يبسط يده لتقتلك غيري: حاكم المجتمع علي حسب قانون القصاص، أو يلط عليك الله من يقتلك. علي حسب عدل الله ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

والكتاب الكريم تدارك قول أحد ابني آدم بالحق بقوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ بغير قصاص لقتله نفسًا ظلمًا، ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ والفساد في الأرض: قطع الطريق، سفك الدماء هتك الحرمات، نهب الأموال، البغي علي عباد الله، هدم البنيان قطع الأشجار، حرم الناس من الماء. كل هذه فساد في الأرض. يقيد الكتاب الكريم الفساد بنوع. فأطلقته.

32 – وهذه الآية الكريمة من سورة المائدة (32) في **منافي** الارتباط في نظام المجتمع وفي عظيم التكافل في الحقوق أعجب وأحكم ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ما هذا التشبيه البليغ المبالغ؟ فأنا نعلم ونري قتل النفس ومامت أحياء النفس. ولم نشاهد أن أحدًا من الناس أحياء نفسًا، أو **أحياء** الناس.

الناس جماعة الأمة في المجتمع وفي هيئة الدولة. فكل فرد من أمة وكل فرد من هيئة الدولة خصم للقاتل في دم المقتول. ومن قتل فردًا من الأمة فقد وتر الأمة وتر من قصد إلي قتل الأمة جميعًا.

والشرع الحكيم يبالغ في حقوق الفرد، يجعلها مثل حقوق الأمة كلها. انتفاء وثبوتًا، فأمن الفرد أمن الأمة. والخطر علي الفرد خطر علي كل الأمة. فجعل الكتاب الحكيم قتل الواحد قتلاً للكل.

فلا يكون لحاكم ولا لمحكمة عفو القاتل. وإنما الأمة ترث دم القتيل.

33 - وأي شيء يقول أهل العلم إن قتل: إن نبأ ابني آدم في الكتاب الكريم تصوير لأدب الإنسان في بداية الإنسانية (الابن الآخر) ولادب الإنسانية في نهايتها. (أحد الابنين) فإذا بلغ وارثي أدب الإنسانية إلى أن تقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا ييسر أحد يديه لقتل الآخر. فلا يقع علي وجه الأرض قتل ولا حرب.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

ويميل قلبي إلي أن أري في ﴿نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ﴾ إن الله جل جلاله بين أصل الحرب ومنشأها علي وجه الأرض في فجور النفس الذي ألهمه الله في طينة الإنسان. ولم يجعل الله لا في شرعه ولا في حكمته الإلهية تقوي النفس دافعة ولا رافعة للفساد من وجه الأرض.

ولا يرفع الفساد من وجه الأرض ولا يدفعه إلا القوة في مقابله. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: 38] ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَّيْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج: 40] ﴿وَإِنْ طَافَتَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۗ فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 9] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253].

فالقتال والحرب علي وجه الأرض ضرورة دبرتها الحكمة الإلهية. وضرورة شرعها الإسلام لمصلحة. وهي باقية ماضية إلي يوم القيامة. وتقدم في الفصلين، (29: 30) إن الجهاد لم يشرع في الإسلام لإكراه الناس علي الإيمان، ولم يشرع قتل أحد لإكراهه علي قبول الإيمان. وإن النبي الكريم في الدعوة إلي الإسلام لم يتوسل ولم يتذرع بالسيف أصلاً.

34 - مسألة الجهاد في شرع الإسلام مسألة حكيمة جليلة. وفي الفصول المتأخرة (19: 33) مددت بعض أنفاسي في بيانها لجلالة شرفها. وهي حكيمة في شرع الإسلام،

وهي جليلة في الحكمة الإلهية إذ دبرتها حكمة الله لصالح الإنسانية: ولو لاها لفستد الأرض: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: 251] وفي الجهاد، الذي دبرته حكمة الله، فضل علي العالمين عظيم في صلاح الإنسانية وفي ارتقائها في مدارج الأدب وفي العلوم والصناعات.

لايستوي قاعد ومجاهد. ولن يكون لأمة عزة وشرف بين الأمم إلا بقوتها وبجهادها، ولن يكون لأمة شأن وملك بين الأمم إلا بالقوة: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾، ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: 60 - 61]، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: 208] كل هذه بعد إعداد قوة بها عزة الإسلام وملك أمته. وإذا نزع الله الملك من أمة فهي ذليلة. (3: 26)

35 - قصة ذي القرنين في سورة الكهف (83: 97) مثال هاد مرشد لأهل الإسلام. والله في مستقبل الإسلام إذ واء قرنين وإذ واء قرون، إن شاء الله. ولنا أمل ورغبة في ما فعله ذو القرنين في زمنه، وليس في تعيين شخصية ذي القرنين في نظرنا من فائدة وليس علينا من بأس إن أبهمنا ما أبهمه الله وأبهمه نبيه وكتابه ونكون ممن قعد وتولي إن لم نسع إلى ما تلاه النبي الكريم ذكراً من ذي القرنين.

36 - هداني الله إلي أن أذكر كل هذه الفصول المتأخرة لأن كون نبي الرأفة والمرحمة نبي الملحمة أيضاً أجلاً ثناء وأعظم فضيلة لني الإسلام، صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وصاحبيه وسلم، لم تكن لأحد من الأنبياء والرسل قبله.

37 - النبي يونس عليه السلام ذكره الكتاب الكريم في سورة الأربع:

الأول في خاتمة سورة القلم: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: 48]. خاطب نبيه الكريم في أدب حسن حميد حكيم، بعد أن أثني عليه في أول هذه السورة بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وكان النبي يونس عليه

السلام أوعده قومه بالعذاب ولما تأخر العذاب أوجس في قلبه خيفة خلف وعده وخاف ظهور كذبه. فخرج من بين قومه ولم يصبر، وامتلأ قلبه غيظاً وكرهاً.

الثاني في سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [الصافات: 139 - 140] أبق إلى البحر، وركب الفلك المشحون. والأقرب أن يكون الفلك مشحوناً إلى حد لا يتحمل الزيادة. فاضطرب الجماعة. ولم يجد صاحب الفلك حيلة إلا الاقتراع. ف وقعت القرعة علي النبي يونس: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ [الصافات: 141] وأي شيء كان سبب الإباق؟ هو خجله عند قومه؟ أو كان لسبب آخر.

ذكر في سورة الصافات أن النبي يونس أرسل مرتين. مرة في قوله: ﴿ وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كان مرسلًا حين أبق ومرة في قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: 147 - 148] والظاهر أن يكون تكرار بيان الإرسال لتكرار الإرسال. ولم يكن في الكتاب الكريم تكرار بيان الإرسال إلا في النبي يونس عليه السلام.

الثالث في سورة الأنبياء: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ [الأنبياء: 87] بين كتب العهد العتيق كتباً للنبي يونس بين فيه سبب المغاضبة نقلته في كتابي ترتيب السور الكريمة. (97). فإن يونس كان الله أرسله إلي بني إسرائيل. وإذا أراد أن يرسله إلي غير بني إسرائيل حسد غير اليهود علي الهداية. فذهب مغاضباً وأبق إلي الفلك المشحون (21: 87) (37: 40). رأيت بيان صاحب الواقعة أحق. لأن كل أحد أدري بما في قلبه. وما في التفاسير هوي كلامي قد حدث. لا يقضي علي نظم الكتاب الكريم خصوصاً إذا احتاج إلي زيادة شيء في نظم الكتاب الكريم والإمام الطبري في تفسيره قال مغضباً لربه. وروي أن النبي الكريم صله الله عليه وسلم قال: نبذ الله فرعون في اليم فقال: لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل فقال لي جبرائيل يا محمد لو رأيتني وأنا أخذ من حال البحر لأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة. ومثل هذا غيرة لله وغضب لله. وقد حكى الله في سورة يونس دعوة موسي

وهارون عليهم السلام (88) وأتى القرآن العظيم بتدارك عجيب حكيم علي هذه الدعوة فقال: ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 89].

الرابع في سورة يونس (10: 97) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً آمَنَتْ فَفَعَلَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: 98] حكي الله في هذه الآية الكريمة استثناء قوم يونس من قول الله ﴿ فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۗ سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۗ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: 85] ولما وقع في قلب النبي يونس غيظ وكرب، وذهب مغاضباً وتمكن في قلبه عزم علي هلاك قوم، أظهر الله رحمته علي القوم فكشف عنهم العذاب ومتعهم إلي حين. تأديباً لنيبه يونس كما تدارك علي دعوة موسى وهارون. فإن رحمة الله وسعت كل شيء وسبقت غضبه. فلا يجب الله من عبده إلا أن يكون رؤوفاً رحيماً لعباد الله.

أما النبي الأُمي صاحب القرآن العظيم فقد ذكر الله عظيم حرصه علي إيمان جميع من علي وجه الأرض في هذه السورة: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [يونس: 99 - 100] ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: 103]

وقد ذكرت في ترتيب السورة الكريمة وجه نزول سورة يونس بعد سورة الإسراء، ووجه وضع النبي الكريم سورة يونس بعد سورة التوبة. (96: 97)

ولما ملأ الله قلب نبيه رحمة لأمته أشار بآيات في إظهار مواخذتهم وأعلم بكف نبيه من تألفهم واحتسبه بمؤمنهم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: 64].

فالنبي الكريم بكل آيات القرآن العظيم ممدوح محمود موصوف بالخلق العظيم. وأمثال قول الله: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ [التوبة: 43] وقول الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ

شَيْءٌ أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴿﴾ [آل عمران: 128] لم تنزل عتاباً من الله لنبيه الكريم وإنما نزلت ثناء لرأفته ورحمته لأمته.

38 - وهل يتمكن الإنسان من أن يتصور ثناء أجمع محامد من قول الله جل جلاله في سورة الأنبياء: ﴿﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿﴾

ومن يكون رسالته عمومية للعالمين، ثم يكون رسالته العمومية مجرد رحمة للعالمين فهل يمكن أن يكون بين عباد الله أحد أحمد منه.

39 - وهل جاء لأحد في كتاب ثناء مثل ما جاء في القرآن العظيم لنبيه الكريم: ﴿﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿﴾ [آل عمران: 31]

فمن جعل الله اتباعه يوجب محبة الله ورضاه وجعله شافعاً في مغفرة الذنوب ونوال الدرجات عند الله فهذا الثناء أنفع ثناء لاهتداء كل فرد من الأمة وأسهل طريق في الاهتداء.

40 - النبي الكريم الرؤوف الرحيم كان عظيم التواضع في كل حالاته وفي كل معاملاته. وقد كان متواضعاً غاية التواضع حتى في نفسه ﴿﴾ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيَّتِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَأَلَّا تَجْعَلَنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿﴾ سورة المؤمنون. (93: 94) ولا أكون مبالغاً إن قلت إن مثل هذا التواضع لم يكن ولا يكون لأحد من البشر.

هذا الباب: باب سيرة النبي الأمي الأمين في كتاب الله المبين أطول باب في هذا الكتاب كتب السنة. بسطته بسطاً وجعلته في أربعين فصلاً. لأن الباب جديد. ولم يكن قبل من كتاب بين سيرة النبي الكريم من آيات القرآن العظيم.

هذا بحمد الله باب جديد: ﴿﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ ﴿﴾ عسي أن يتخذاه أهل الرغبة من أبناء الأمة سبيلاً إلى كتاب الله. في سيرة نبيه وفي سيرة أنبيائه.

السنة أصل أول (3)

تقدم في الباب الأول معني السنة: سنة الله، سنة الأولين، سنة النبي الكريم صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وسلم. ونريد في هذا الباب أن نثبت أن سنة النبي الكريم صاحب القرآن العظيم أصل أول بين الأصول الأدلة الأربعة في شرع الإسلام في إثبات الأحكام إن شاء الله.

41 - السنة أصل أول بين أصول الأدلة الأربعة في شرع الإسلام في إثبات الأحكام.
لم يثبت حكم في الإسلام أول ثبوته إلا بالسنة. وآيات الكتاب الكريم كانت تنزل بعد مؤيدة مثبتة لفعل النبي الكريم وإقراره وأقواله.

الإيمان وكل أركان الدين وكل فرائض الدين ثبتت أول ثبوتها بالسنة. ثم جاءت آيات الكتاب الكريم تؤيدها وتثبتها تبييناً الصلاة وكل أركانها وشروطها وأوقاتها ثبتت بالسنة أولاً ثم نزلت آيات الكتاب الكريم مؤيدة مثبتة.

آية الوضوء، والوضوء شرط الصلاة، لم تنزل إلا في السنة السادسة من الهجرة، ووضعت في السادسة من آيات سورة المائدة وكان الوضوء شرط الصلاة مدة عشرين سنة، بالسنة. ولم يصل النبي ولا أحد من الصحابة صلاة بلا وضوء. هذا معلوم بالضرورة. ففرض الوضوء لم يكن إلا بالسنة. وكذلك التيمم. فإن الأعذار في مدة عشرين سنة كانت تقع. والاكْتفاء بالطهارة الأصلية كان مشروعاً بإرشاد النبي الكريم. ووضع النبي الكريم آية الوضوء والتيمم الثالثة وأربعين في السورة الثالثة بمناسبة ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.

الحج عرفة - والتعريف أعظم ركن من أركان الحج. وليس للتعريف ذكر في القرآن الكريم. إلا ظرف لنسك غير واجب في قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198] ذكر الإفاضة من عرفات ظرفاً لا عمدة. ولم يذكر التعريف والحج هو التعريف لم يثبت إلا بالسنة. وذكر الإفاضة من المشعر الحرام في عمدة الكلام. ولم يذكر التشعير: (الوقف في المشعر الحرام) إلا باقتضاء: ثم قفوا. ﴿ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199]

ومثل هذا البيان العجيب يرشد أهل العلم: إلي أن الأصل في ثبوت أركان الدين وفي ثبوت واجباته هو السنة: عمل النبي الكريم.

وكذلك الصيام، وكذلك الزكاة. ثبت الصيام أول ثبوته بالسنة وثبت الزكاة أول ثبوتها بالسنة ثم نزلت الآيات الكريمة مؤيدة مثبتة فارضة مثبتة.

أجمعت الآيات علي أن السنة أصل أول، ثم أجمعت الأمة علي أن السنة أصل أول، وأصل في البيان أعم وأسهل. وفعل النبي الكريم وقوله قبل نزول الآيات وبعد نزولها بيان بمعنى التبليغ أولاً وبيان بمعنى التفصيل لإجمالها وبمعني البسط لاختصارها، وبمعني التيسير لفهمها لأن بيان الفعل مشاهد يشاهده كل أحد: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: 44] والبيان في قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: 64] تبليغ لأهل الكتاب حل ما اختلفوا فيه ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: 105]

ولا يرتاب أحد يتلو الكتاب الكريم أن النبي حاكم وأن النبي مبین. حكمه حجة قطيعة، وبيانه حجة قطيعة بالضرورة.

فعل النبي الكريم وقوله في كليات الشرع أعلي من قضائه في جزئيات الأحكام والحوادث: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65] فالكتاب الكريم باقتضاء هذه الآية الكريمة قد حكم أن سنة النبي الكريم أجل حجة وأقوي أصل بين الأصول الأربعة وأمر النبي الكريم في حادثة جزئية إذا كان موجباً للطاعة كما نصت عليه الآيتان في خاتمة سورة النور، ففعل النبي الكريم وقوله في كليات الشرع يكون أكثر إيجاباً بالضرورة.

قلنا إن سنة النبي الكريم أصل أول وأصل أسهل ونقول الآن أن سنة النبي الكريم صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وصاحبيه أعلي. دليل وأقوي حجة بين أصول أدلة الإسلام في

إثبات العقائد والأحكام لقول الله في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ (سورة الحديد (8)).

جعل الكتاب الكريم دعوة نبيه إلي الإيمان بالله أعلي حجة لا يبغي بعدها عذر لأحد. فدعوة النبي أصل أول وأصل أعلي وأجل ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ [آل عمران: 101] فوجود الرسول الذي يتلو آيات الله ويدعو إلي الإيمان بالله حجة لا يبغي بعدها عذر لأحد.

من آمن برسالة النبي الكريم محمد صلي الله عليه وآله وسلم فمحمد في رسالته:

1 - خليفة الله علي وجه الأرض إمام أمته. ففعله وقوله وحكمه قانون عمومي في دولته.

2 - معلم حكيم مفت، قوله حجة وفتوي لكل فرد من أمته.

3 - قاض عادل مرشد قضاؤه نافذ في كل حادثة، لا يمكن أن ينقضه ناقض.

4 - نبي الله علي العالمين أجمعين. نحن نوحده محمدًا في رسالته، كما نوحده ربه في ألوهيته.

فهدية وسيرته من جميع هذه الوجوه الأربعة حجة إلهية بالغة بليغة.

السنة حجة توجب الحكم قطعاً (4)

هذا الباب الذي تقدم وإن أغناني كل الإغناء عن بسط أدلة كون السنة حجة قطعية في إثبات حكمها، إلا أنني اقتداء لأهل العلم في كتب أصول الفقه أبسط بعض البسط الأدلة. نزلا لأهل الرغبة من كرام الطلبة.

42 - ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: 7] الايتاء هو الأمر. بدليل: ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ ﴾ والنهي يفيد التحريم. فالأمر بدلالة المقابلة يوجب

الوجوب. والله العزيز العليم بهذه الآية الكريمة فوض إلي نبيه الكريم المعصوم التشريع بالإطلاق. لأنه حكيم عصمه الله وجعله علي بينة من ربه.

ونحن نعتقد أن الأمة مثل نبيها معصومة في تحمل الشرع وفي أدائه. فالصحابه الكرام حفظت الكتاب وحفظت السنن وبلغت والذين اتبعوهم باحسان مثل الصحابة في حفظ الشرع بالكتاب والسنن وفي الأداء. وكل القرون بعد هؤلاء إلي يوم القيامة لها العصمة في حفظ الشرع بكل أصوله وفي التبليغ.

ولذلك نري ونعتقد أن سنة السلف وسنن الأوائل لا ينبغي لنا أن نخالفها. وسنن الصحابة الكرام زمن الخلافة الراشدة حجة في عقيدتنا قطعية. وهي: ﴿ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ [النور: 55] خصوصًا إذا كان فيها معني حكيم له فائدة إجتماعية. كما أن كل أمر في وضعه فائدة فإن للخلف أن يضعوه. وبذلك يكون ظهور الإسلام وعزته. وعلي هذه الوثيرة تكون تلاوة الأمة القرآن الكريم ارتقاء.

43 - وقد نزلت في وجوب الأتباع ووجوب الإطاعة آيات كثيرة. مثل قوله الله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: 64]

فإذ جعل إطاعة الرسول غاية الإرسال ففعل الرسول وقوله يكون حجة بالضرورة.

44 - ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: 31] هذه الآية الكريمة بينة جلية علي أن كل سنن النبي: أفعاله وأقواله وأقاريره واجتهاده حجة بالغة قاطعة، يفوز أعظم فوز من تمسك بها. لأن برهان محبة الله هو الاتباع، والذي يوجب رضي الله ومحبته هو الاتباع. والاتباع هو امتثال الأمر، لا مجرد محاكاة الفعل.

45 - ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: 13] ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور: 56].

جعل الإطاعة في درجة الصلاة والزكاة في حكمها. فالإطاعة واجبة مثل وجوب الصلاة والزكاة.

46 - ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ سورة يوسف (107) هذه سبيلي وسبيل من اتبعني. ادعوا إلى الله ويدعو من اتبعني. علي بصيرة أنا وعلي بصيرة من اتبعن. كل هذه الوجوه الثلاثة يفيدها النظم العربي علي حد سواه. والسنة سبيله في التبليغ. والني الكريم علي بصيرة. فالسنة حجة بالبداهة. إلا لم يمكن أن يكون لمن اتبع حق في الدعوة.

47 - ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۗ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۗ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورة: 52 - 53].

والقرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أتى بكناية الغائب أولاً ثم التفت ثانياً وخاطب نبيه الكريم. فكان الكتاب الكريم من أول الأمر قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ بفعلك وقولك وقرارك.

والصراط المستقيم الذي أضافه الله في أم الكتاب إلى ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ أضافه في هذه الآية الكريمة إلى نفسه: ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تعظيماً لشأن هدي النبي في كونه بياناً للقرآن الكريم وقلم أبلغ بليغ ولسان أعلم عالم قاصر في بيان إفادة هذه الآية الكريمة وفي بيان درجة إعجازها.

وخاتمة هذه الآية الكريمة، ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ دلت دلالة قطعية علي أن بيان النبي بأخلاقه وأقواله وأفعاله صائرة إلى الله صيرورة كل الأمور إليه.

48 - وأصح الاستدلال في كل الأحكام الشرعية الاجتماعية استدلال أهل العلم بأحوال النبي الكريم وسيرته وسننه. والكتاب الكريم يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ سورة الأحزاب وفي غيرها. فعل النبي صاحب القرآن الكريم يدل دلالة قطعية علي الندب والاستحباب. ويدل الآية علي أن التأسي اهتداء بالضرورة.

وسيرة النبي في حياته دساتير للأمة. فالسنة أهم دليل في شرع الإسلام.

49 – وقد أتى القرآن الكريم بغاية البيان: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق: 10 - 11]

جعل الله نبيه عين الذكر، وجعل سيرته آيات الله. فسيرة النبي الكريم، بنص هذه الآية الكريمة، حجة لله بالغة مبينة تخرج الأمة من الظلمات إلى النور.

50 – النبي الكريم في تبليغ الشرع معصوم. وستته وحي. وهو في كل أفعاله وكل أقواله ﴿علي بينة من ربه﴾ لآيات كثيرة في ذلك ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ ﴿قل إني علي بينة من ربي﴾ ﴿إن الحكم إلا لله﴾ فلا يكون فعل النبي وقوله إلا من الله. ومن يقول ﴿إن الحكم إلا لله﴾ إذا حكم فحكمه لله. لأنه صادق معصوم.

51 – الاقتداء بالسنن المعلومة الحقة جعله الله غاية لإرادته في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَنَّكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26] فإذا كان اقتداء الأمة الإسلامية واهتداءها إلى السنن القديمة غاية لإرادة الله في شرع الإسلام يهديهم إليها الكتاب الكريم وحجة لأمته فأى واضع خافض وضع وخفض سنن صاحب القرآن الكريم عن حق بذله الله لكل وسننه أهدي وأقوم وأحكم وأقرب لصلاح المجتمع.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ﴾ [القصص: 49] ﴿قَالَ أَوْلَوْا جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ۗ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ سورة الزخرف (24)

فهل تقولون مثل ما قالوا: إنا بما أرسلت به كافرون؟

52 – وآيات كثيرة في أهم الأمور وأعمها نزلت خطابًا للنبي الكريم مثل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ﴿فلو لم يكن عمل النبي الكريم حجة موجبة لما اختص الله بخطابه نبيه. فدلّت كل هذه الآيات علي أن سنة النبي حجة.

لا عذر لأحد في إنكاره السنن ولا فائدة (5)

تقدم في الفصول الأربعة السابقة ما به سيظمن، إن شاء الله قلوب أهل الرغبة من كرام الطلبة في موضوع السنة. فقد بسطت هدايي الله إليه بعض ما استطعت في شأن السنن. وكان أهم ما قمت إليه بيان سنن النبي الكريم صاحب القرآن العظيم صلي الله عليه وسلم وصحبه وصاحبيه وسلم.

53 - بأية شبهة بأي عذر وبأي وهم يعتذر من ينكر سنن النبي الكريم صاحب القرآن العظيم؟

فإن يكن يعتذر بشيوع الوضع في الأحاديث، فإن شيوع الوضع في الأحاديث لا يقوم عذرًا في ترك سنن كان ليلها كنهارها بفضل أصحاب السنن وبفضل فقهاء الإسلام. ومن عصمة الدين الحق أن آية الوضع لم تتمكن أن تمس مشاريع الشرع ومشاعر الدين بشيء ليس من الدين فلم يوجد في هدي النبي الكريم، ولا في سننه الثابتة، ولا في سيرة حياته النبوية شيء موضوع. ولم يتأثر من وضع أهل الوضع فقه الإسلام. وما وضعه القصاصون ودعاة الفرق لم يكن له أثر في فقه مذاهب الإسلام. نعرف الوضع. فهل يتمكن أحد أن يرينا حديثًا موضوعًا بني عليه فقه مذهب من مذاهب الإسلام، أو حديثًا موضوعًا في هدي النبي الكريم بني عليه أدب الإسلام.

وضع الزاهد أحاديث في فضائل الأعمال وأجودها، وداع من دعاة الفرق في مناقب الأفراد والأشخاص وفي مثالها. وظاهر أن هذا ليس من الدين في شيء.

فعدوا كل الموضوعات من الأساطير. وعندكم فرقان يميز الخبيث من الطيب، والكاذب من الصادق، والباطل من الحق. ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]

وإن يتعذر بأن السنن صارت تشغل الناس عن الكتاب الكريم فإن جعل الناس السنن شاغلة عن الكتاب الكريم عيب للناس وليس من مضار السنن.

والاختلاف الذي وقع بين الأمة لم يكن أصلاً من السنن لم يكن إلا من الأهواء. مثل اختلاف أهواء أهل الكلام في نصوص آيات الكتاب الكريم وهي بينات. فإن لم يكن اختلاف الأهواء السياسية والكلامية قادحاً في الآيات البينات فكيف يجعل قادحاً في السنن.

نحن نعتقد، ونقول قول محق صادق: حسبنا كتاب الله وأن الكتاب الكريم كاف للأمة تمام الكفاية ومغن تمام الإغناء. نحن لا نريد من القرآن الكريم بدلاً ولا نبغي عن الكتاب الكريم حولاً. ولكن نتبع من هو أعلم منا بالقرآن الكريم. وإمام هؤلاء هو النبي الكريم صلي الله عليه وعلي آله وصحبه وصاحبيه وسلم.

ولا شك ولا ريب أن كل حكيم وكل عظيم وكل نبي في حياته كان له أفعال وأقوال عدَّتْها الأمم سنة اجتماعية مقدسة تهتدي بها في كل أمورها. وهذا أمر فطري في نظام الأمم. لم ينكره أحد. ولن ينكر عاقل. فلا يكون من شرف خاتم الأنبياء صاحب القرآن الكريم إن نستثنيه من بين الحكماء والأنبياء والعظماء في كون فعله وقوله وسيرته حجة هادية، وقد أرسله ربه حجة ورحمة للعالمين، وسيبعث ربه مقاماً ما يحمد به قلباً ولساناً كل الآخرين.

وقد ترك الله علي أنبيائه في أقل شؤونهم في الآخرين: ﴿سلام علي نوح في العالمين﴾ ﴿سلام علي إبراهيم﴾ ﴿سلام علي موسي وهارون﴾ ﴿سلام علي إل ياسين﴾ (إلياسين).

فهل يكون من كمال الإسلام أن لا تكون سيرة نبيه حجة حاكمة في حق أمته؟
حكيمة في اهتدائها؟

ونعلم علم اليقين، ونقول، وليس في قلبنا ذرة ارتياب ولا مبالغاً أن كل سيره في كل حياته مدة ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر دساتير حكيمة لأمته في حياتها الأدبية الاجتماعية والسياسية.

ونعلم حق العلم: أن ما وضعه أهل الوضع من الاحاديث أقل مما أثبتته أئمة السلف من الصحاح من السنن الثابتة. وقد قال النبي الكريم: تركتكم علي بيضاء ليها مثل نهارها. وقد قال عليكم بسنتي لن تضلوا ما تمسكتم بها.

ومن سننه وسنن صحابته:

1 - الاكتفاء في الحياة **بالْبُلْغَةِ**⁽¹⁾ في الحاجات الشخصية زمن الضيق.

2 - بذل كل همه في إقامة العدل وفي إعلاء كلمة الله.

3 - وفي إخراج خلق الله من ظلمات الجهل ومن فتن الفساد.

فمن ضل من هذه السنن السنية فقد ضل وقد ذل وقد زل، وأحاطت بنظام المجتمع الأزمات والأسقام والعلل. كما رأينا في كل تأريخ الدول الإسلامية، ونري اليوم أهول منه في عصورنا هذه في الدول التي تدعي المدنية.

فأرونا أي سنة من سنن النبي الكريم اضطرتكم إلى إنكار سننه وأية سنة عذرتكم في تركها إعراضاً وتولياً عنها؟

قد ثبت عند الأمة قول النبي الكريم. ألا إن أحسن الكلام كلام الله. وأحسن الهدي هدي محمد. وشر الأمور محدثاتها. وكل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة. وكل ضلالة في النار.

فإن اعتقدت إن أبلغ الكلام كلام الله وكنت في اعتقادك صادقاً مخلصاً فكيف تنكر أن أحسن الهدي هدي محمد؟

الجمل الست في هذا القول صادقة كل الصدق، حكمة نبوية في حفظ الدين علي أصله عضاً طرياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(1) البُلْغَةُ : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها . المعجم الوسيط

والبدعة في هذا القول الحكيم إحداث شيء ليس من الدين علي أنه جزء من الدين، علي أنه عمل ديني يتقرب به العبد إلى ربه.

والأمر الذي يخترعه أحد أو تحدثه أمة إن لم يجعل جزءاً من الدين ولم يعتبر عملاً دينياً فلا يكون بدعة مردودة، ولا يكون ضلالة. إنما البدعة زيادة في الدين. وكل محدثة في الدين بدعة. وكل بدعة ضلالة.

ومن يقول أن البدعة تدخلها الأحكام الخمسة فأقل ما فيه أنه رد لنص الشارع من غير أن يفهم قصد الشارع.

ومن أهل العلم من كتب كتباً رد المنطق، وفي رد الفلسفة. وقد أصاب كل الإصابة في رده علي المناطق وعلي المتفلسفة. ولم يتمكن أن يقول حرفاً في رده علي المنطق وعلي الفلسفة.

ولم يكن الرد إلا من حيثية جعل المنطق والفلسفة قسمًا من أقسام العلوم الدينية. لا من حيثية كون المنطق صناعة من الصنائع، وهندسة في نظام الأفكار. ولا من حيثية كون الفلسفة علمًا شريفًا من العلوم يبحث في الوجود وفي المعرفة. وموضع الفلسفة هو:

1 - الوجود.

2 - المعرفة.

وقد أخطأ ويخطئ من ظن ويظن غير ذلك. فحرم المنطق وجعل الفلسفة من مبادي الزندقة. هذا هو الذي جعل في أعناق عقل البشر أغلالاً، وجعل بين أيديه ومن خلفه سدًا. فأغشاه وأعشاه.

وكبار علماء أصول الفقه وإن جعلوا المنطق وبعض مسائل الفلسفة جزءاً من علم أصول الفقه في التدوين، فلم يجعلوه جزءاً من الدين ولم يعدوه علمًا دينياً. وكانوا أعلم منا بكونه من العلوم الكونية.

54 - وآية سورة النساء: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69] قد وسعت دائرة الفضل بأن جعلت الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أربع جماعات وبأن ألحقت بهم عامة الأمة التي أطاعت الله وأطاعت الرسول ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ وصاحب القرآن الكريم أول من دخل في الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فكل سنه الكريمة هي: ﴿ الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ الذي يطلبه كل الأمم في كل ركعة من مكتوباتها ونوافلها. فالذي يتلو القرآن الكريم ويدعو الله بدعوته. ﴿ إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فتلاوته ودعوته ودعوته حجة عليه وإن لم يعترف هو بحجية سنن نبيه.

55 - ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38] ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: 35]. والآيات في هذا المعنى كثيرة في سور القرآن الكريم.

لم علق القرآن الكريم الإرسال والإنزال بحرف الشك؟

قال أهل العلم إن الإرسال ليس بواجب علي الله. فإن أساس الدين وهو معرفة الله بتوحيده ومعرفة بعض حقوق الله علي عباده يحصل بالعقل واهتداء الإنسان كاف في قيام أصل الحجة. ويبقى التكميل في ما لا يدركه العقل بالإرسال فالإرسال فضل من الله ولطف من الله علي الناس. وليس بواجب ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾:

1 - بكتاب.

2 - هدي برسول.

3 - هدي بالعقل.

فمن اتبع هداي المنقول أو المعقول ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أضاف الهدي إلي نفسه وأطلقه بعد الإضافة، فيدخل في إطلاقه وفي عمومته:

1 - هدي الكتاب .

2 - هدي الرسول .

3 - هدي العقل .

كل هذه الثلاث علي مستوي واحد في الهداية والاهتداء.

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى [البقرة: 120]

قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ [آل عمران: 73]

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى [الأنعام: 71]

واعتقد، وقلبي مطمئن به، إن هدي الله المعرف بالإضافة إلى اسم الجلالة هو الخبر في كل هذه الآيات الثلاث. والهدي المحلي بال التعريف هو الإسم هو المبتدأ. لأن انحصار الهدي في هدي الله لا يستفاد إلا إذا جعلنا هدي الله خبراً يحصر المبتدأ. هذا قانون عقلي في البيان. خلافه خلف يفسد به المعني.

وقولي هذا ينسبط إلى آيات كثيرة أخالف به أهل العلم من **مغولي** القرآن الكريم فيها. مثلاً: قول الله في سورة البقرة: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ إِن قَصَدْنَا انحصار الفلاح في أولئك فهذا القصد لايتأتى إلا إذا جعلنا المفلحون مبتدأ يحصره اسم الإشارة. أما إذا جعلنا اسم الإشارة مبتدأ والمفلحون خبراً فالجملة علي هذا التقدير تفيد ثبوت الفلاح ولا تفيد انحصاره في اسم الإشارة.

ورضي الله عن إمام الأدب سيبويه إذ يقول في كتابه إن أكثر النحاة يتهاونون بالخلف في المعني إذا استقام لهم وجه الأعراب. ومعرفة معني الكلام ألزم من معرفة وجه الأعراب.

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: 51].

اتفقت الأمة وأجمعت الأئمة علي نصب، ﴿قول المؤمنين﴾ ولن يستقيم المعني إلا علي الإسمية. وأهل الأعراب أجمعون قالوا إنه خير كان. اغتروا بوجه النصب. وتهاونوا عظيم التهاون بالخلف في المعني. وأمثال هذه الآيات في الكتاب الكريم كثيرة. ولا يستقيم المعني إلا علي الإسمية.

فقلت مهتدياً بأمثال هذه الآيات الكريمة: إن "كان" من بين الأفعال الناقصة تستعملها العرب علي وجوه:

- 1 - رفع الإسم، ونصب الخبر لم يثبت نحوي غير هذا الوجه.
 - 2 - رفع الإسمين. يحمله النحوي علي الالغاء، أو علي إضمار ضمير الشأن.
 - 3 - نصب الإسم ورفع الخبر. وهذا الوجه في آيات الكتاب الكريم كثير. يخطئ في هذا الوجه النحاة خطأ فاحشاً يجعل المنصوب خبراً ولا يستقيم المعني علي الخبرية أصلاً.
- وأنا أقول: إن كان قد تكون مثل إن في العمل:

كان كأن. كان مثل إن. وشواهد آيات الكتاب الكريم ولم يهتد إليه نحوي. وضل ضلالاً بعيداً من ظن أن المنصوب هو الخبر.

56 - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۖ أُولَٰئِكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]

دعاهم إلي الرسول إلي هديه وسيرته وسننه، مثل ما دعاهم إلي ما أنزل الله إلي كتاب الله. فقد جعل الكتاب الكريم هدي الرسول مثل كتاب الله حجة إلهية حجة بالغة.

ثم ينبغي لتفكر أن يتنبه إن الله في مثل هذه الآيات الكريمة لم ينكر لإقتداء بالسنن القديمة. وإنما رد الاقتداء بالسنن الباطلة، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أما لو كان الآباء علي علم وعلي هداية لما أنكر الكتاب الكريم قولهم: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾

فقول الله جل جلاله: ﴿ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ حجة جليلة وبرهان جلي جميل علي أن الاقتداء بالسنن الصالحة هداية. وأقوم السنن وأحسن الهدى سنة صاحب القرآن وهدى محمد صلى الله عليه وسلم.

57 - ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أُولُو حِجْثِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۗ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: 23 - 24]

أقرهم علي دعواهم الاهتداء والاقتداء بالسنن القديمة. ودعاهم إلي سنن النبي التي هي أهدي من سنن آباؤهم القديمة. فأرشدهم إلي أن البقاء علي سنن القديمة لكونها سنن الآباء بعد ظهور سنن هي أهدي من القديمة **اختلال** اجتماعي. دعاهم إلي الهدى، ولم ينكر هداية القديم. هذا أدب عظيم في دعوة القرآن الكريم.

فإنكار السنن اليوم يدخل في قول الله حكاية عن الأمم: ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: 24]

58 - ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۗ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 28]

الأب في عرف أديان الأمم القديمة هم المعلومون والأنبياء بدليل قولهم: ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ردهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ردًا لسنن الباطنة. وفيه تثبيت للسنن الصالحة القومية والإسلام يقر الأمم علي عوائدهم القديمة وعلي سننهم القومية إن لم يكن في العوائد والسنن فساد اجتماعي، ولم يكن فيها عقيدة باطلة.

59 - قد اتفق أهل العلم، وليس لمنكر أن يستبعد إن قلت، قد اتفقت الأمة علي أن العلم ثلاثة، وماسواها زيادة في الفضيلة:

1 - آية محكمة: كتاب الله.

2 - سنة قائمة، ثابتة من نبي الله.

3 - فريضة عادلة. هي الإجماع وحكم العقل بالقياس أو بغيره. ومعني الفريضة يجب العمل بها. ومعني العادلة إنها تساوي كتاب الله وسنة نبيه في إثبات حكم الله

وكما أنه ليس بسنة كل حديث، كذلك ليس بعقل وليس بعلم كل ما يراه كل أحد. فإن كان لك سبيل إلي إنكار حديث بعقلك وعلمك، فأني سد يسد علي وجهنا باب الكلام في علمك وعقلك. وقد قيل، والقول حق معقول، تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه.

وليس العجلة والطيش والتهور في إنكار أصل من الأصول التي اتفقت كل الأمم وكل الشرائع علي تقديسها، بعقل.

واتباع السنن واتخاذها أول حجة وأعظم دليل اتفقت عليها الشرائع وطبيعة البشر، وأيدته الحكمة في جميع العصور عند جميع القرون.

60 - قد اعترفت إن علامة الوضع خمس:

1 - أن يخالف العقل.

2 - أن يخالف الفطرة.

3 - أن يخالف القرآن الكريم.

4 - أن يخالف التاريخ.

5 - أن يخالف القرائن.

ونحن نزيد السادس ونقول:

6 - أن يخالف الثابت من أحاديث الرسول.

ثم لنا أن نزيد السابع ونقول:

7 - أن يخالف أصلاً اجتماع تلقاه سلف الأمة بالقبول.

نحكم علي كل هذه السبع بالوضع. ولا حاجة إلي بحث في أسانيدها. فإن أئمة الحديث لا يبحثون في الأسانيد إلا بعد البحث في المتون.

فإذا قلنا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: إن العلم ثلاثة: وما سواه فضل:

1 - آية محكم.

2 - سنة قائمة.

3 - فريضة عادلة.

فبأي علامة من هذه العلامات أو بأي دليل من الأدلة تحكم علي هذا الحديث بالوضع. فإن كانت السنة القائمة علمًا، فلأي حكمة اجتماعية ولأي مصلحة أدبية تحرم السنة القائمة عن حق ثبت لأختيها: للآية المحكمة وللفريضة العادلة، وأنت لاتنكر أن الآية المحكمة والفريضة العادلة حجة.

61 - اعترف المنكر بأنه إنما ينكر حجية السنن، ولا ينكر قيمتها التاريخية. وأنا استبعد كل الاستبعاد مثل هذا القول من مثله. فإن سنن النبي الكرم الشارح الحكيم إن لم تكن حجة حاكمة علي الناس كافة لم يبق لها شيء من قيمة. سوي ما لفعل كل أحد عاش يومًا من الدهر. وهذا أعظم انتقاص لسيد الرسل خاتم النبيين صلي الله عليه وسلم

ومن ينكر حجية السنن ويدعي أنه يري قيمتها التاريخية فلكل متهم أن يتهمه بأنه تظاهر وأنه تستر خوفًا أو طمعًا رغبًا أو رهبًا. مستندًا في إتهامه علي أن القرون المتأخرة من الأمم الإسلامية في هذه العصور قد تخارجت من كل حظوظها ومن كل سهامها ومن موارث نبيها ومن موارث سلفها تبرعًا لأهل الغرب يجنون العاجلة ويذرون وراءهم كل

أثقالهم الثمينة لأهل الغرب. يتمتعون بها في ترقياتهم العظيمة تخارجوا كل التخارج. فهم ثافلون عن قيمتها التاريخية. كما أنتم تنكرون قيمتها العلمية الأدبية الدينية.

وأنا أعتقد، وليس في قلبي ودماعي ذرة ارتياب: أن نصوص الكتاب ونصوص السنة قسمان متوافقان:

1 - طلب وإرشاد، أو أمر ونواه. ويسميا أهل العلم بالتكاليف. في العبادات والمعاملات وغيرها. وهذا القسم هو الأدلة النقلية. كلها علي عقيدتنا قطعية.

2 - آيات وسنن في غير قسم الطلب وفي غير التكاليف وكل هذه النصوص الآيات والسنن براهين عقلية، أقوم من براهين الكتب العقلية ومن براهين كتب الحكمة، وأجل وأدل من كل برهان يجله أهل العلم في كتبهم العلمية.

أقول كل ذلك، لا بإيمان فقط ولا بمجرد هوي ديني وجد قلبي خالياً فتمكن. بل أقول بعلم رسخ في قلوبنا ببركة كتب الحكمة وكتب أهل العلوم، وبما هدانا الله له. ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: 43]

وشاهدنا في ذلك وشهيدنا هو الله: يهدي الله لنوره من يشاء. دعوانا فيها سبحانه اللهم. وتحيتنا فيها سلام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

62 - ذكر في الكتاب الكريم في دعوة إبراهيم (2: 129) ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وذكر هذه الأربعة من شؤون النبي الكريم علي غير هذا الترتيب في آل عمران (164) وفي سورة الجمعة (2) والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة كانت بهدي النبي وسيرته في حياته بأفعاله وأقواله. وآيات الله وكتاب الله كانت مؤيدة مثبتة لهدي النبي الكريم. فكانت السنة هي الأصل الأول في التشريع.

وذكر الله جل جلاله (2: 151) الشأن الخامس من شؤون النبي الكريم، فقال ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ والشأن الخامس إن لم يكن أحد هذه الأربعة المتقدمة، فهو

من باب قول الله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۖ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (4):
(113).

وشأن النبي أرفع من أن يكون معلم مهن وحرف لم تكن تعلمها العرب. فالغالب إن الشأن الخامس هو في علوم وشؤون جليلة رفعها كبار السلف بسندها إلي النبي الكريم صلي الله عليه وسلم وإن كان أهل الحديث وأهل الفقه ينكرونها.

فإن كان ذلك كذلك فالكتاب الكريم يمثل هذه الآيات الكريمة قد جعل هدي النبي وسيرته: أقواله أفعاله حجة بالغة وبرهانا في أعلي الشؤون وأجل العلوم.

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۖ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ما سماه الله فضلا عظيما لم يكن النبي الكريم ليحرم أمته من ذلك الفضل العظيم. فيكون هذا الفضل العظيم وعدل إلي البشر ببركة النبي محمد صلي الله عليه وآله وسلم. ويكون هدي النبي وسننه حجة في أجل الأمور شأننا لكل الإنسانية.

﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: 27 - 28]

63 - والفقهاء في الكتاب وفي السنة هو معرفة حقائق الدين، ومعرفة حكمه، وأسرار الدين، إن كان للدين أسرار. وللسادة الصوفية في الفقه بهذا المعني مالم يسمن أنفسهم فقهاء وأهل الحديث.

والتصوف فيه كمال الفقه وكمال أصول الدين وفيه كما التوحيد وحقائق التوحيد وفيه أصل الأصول.

ولا يمكن جمع الإنسانية كافة داخل دائرة خطيرة قدس الإسلام ولن يتيسر أن نري الإنسانية كافة حافة من حول عرش الله - حول القرآن الكريم إلا إذا بلغ نظرنا في تعاليم الإسلام وأدب الحياة، وبلغ فقهننا في نصوص الكتاب الكريم وفي هدي النبي الحكيم العظيم إلي مستوي نظر السلف الكريم وإلي مستوي فقه السلف الصالح العليم.

إذ لم يكن في أدبهم تحجير ما وسعه الله، وإذ لم يكن طبع علي قلوبهم داء تقليد يؤثر رأي المتقدم وهوي القديم علي الكتاب وعلي السنة وعلي العقل وصلاح الفطرة. كما نراه في القرون المتأخرة، وكما نراه اليوم في دعاوي المنتحلين الغالين والغالين الذين يوحون إلي أوليائهم زخرف القول غرورًا.

64 - تقدم أن سنن النبي الكريم العظيم هي سيرة النبي وطريقته التي كان يتحراها في تبليغ دين الله لأمتة الكريمة. وقد كان بعض هديه لا علي أنه تبليغ للدين. بل علي أنه عربي يأتي بعوائد العرب، وسعه الإسلام تقر كل أمة علي عوائدها وعلي طبيعتها. ولا تحمل علي أمتة عوائد أمة أخرى وطبيعتها. ﴿كُلُّ يَعْْمَلُ عَلَي شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 84]

فقول الله ﴿كُلُّ يَعْْمَلُ عَلَي شَاكِلَتِهِ﴾ حكم كوني طبيعي لا استثناء فيه. هذا القول الجميل الجليل في كونه عامًا مثل قول الله جل جلاله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وقول الله ﴿فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ معناه: لا أنتم قطع دابر التفاخر بالعوائد القومية، واستأصل جزور الاغترار بالخصائص القومية.

ومن أعجب ما ورد في القرآن الكريم في تقرير هذا الأصل الكوني الطبيعي قول الله جل جلاله حكاية عن قول الأمم يوم القيامة: ﴿هُؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْوَيْنَا أَعْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا ۗ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ [القصص: 63] حكي قولهم، وأقرهم علي صادق اعتذارهم.

والدين السماوي إذا كان دينا قوميًا مثل ديانة اليهود، يمكن أن يعتبر عوائد القوم سنة دينية. أما إذا كان الدين دينًا عالميًا فلا يمكن أن يجعل عوائد قوم سنة دينية أصلًا. فإن الطبائع وآدابها وعوائدها مختلفة بالطبع بالضرورة. ﴿كُلُّ يَعْْمَلُ عَلَي شَاكِلَتِهِ﴾

وقد أغفل وأهمل هذه الميزة الطبيعية أئمة أصول الفقه. واحتل به فضل نظام الإسلام في سعته، وفي كونه دينًا عالميًا عرضه السماوات والأرض.

وإن قال قائل أنه في العاقبة صار سبباً يعتذر به من ينكر السنن وحجيتها فالأقرب أن القائل يكون مصيباً في القول. والذي يعتذر به صادق في اعتذاره، غافل عن الحقيقة، غفلة من يقول: ﴿أَعْوَيْنَاهُمْ كَمَا عَوَيْنَا﴾ وعلي من ينكر السنة أن يتبرأ اليوم إلى السنة، كما يتبرأ الأمم إلى الله يوم القيامة.

وقد قال النبي الكريم: لكل عالم شرة. ولكل شرة فترة. فمن فتر إلى سنتي فقد نجا. عذرهم النبي الكريم البر الرؤوف الرحيم بهذا القول الجيمل الكريم إن سكنوا إلى سنته.

ذيول علي الفصول (6)

غاية ما قصدته في هذا الكتاب:

- 1 - إن السنة أصل أول بين الأصول الأربعة الإسلامية. وهي حجة.
 - 2 - وإن ليس في حجية السنة ضرر تعبت به الأمة.
 - 3 - وإن لا حاجة إلى إنكار السنن، ولا فائدة بل الإنكا هدم لقواعد البيت الذي رفع محمد صلى الله عليه وسلم قواعده وأصحابه الكرام.
- وأريد الآن أن آتي بذيول مجملة في المسائل الاجتماعية الأدبية الدينية يكون فيها تدارك بعض ما بدر منا

1 - نزه كتاب الله من كل باطل ومن كل تناقض واختلاف. هذا هو النصيحة لكتاب الله.

2 - نعرف مقادير الأئمة ونقدر حق القدر فضل الأئمة وحقها.

3 - فضل إمام من الأئمة لا يوجب علينا قبول قوله.

4 - ترك قول إمام من الأئمة لا يوجب انتقاضه ولا احتقاره.

- 5 - ليس في تقدم الزمان فضل وليس في تأخر الزمان ما يوجب نقصًا في المتأخر.
- 6 - لا يكون قول أحد ولا فعل أحد حجة. إلا سنة النبي الكريم صاحب القرآن العظيم.
- 7 - نسلم لكل أحد له كفاءة أن يجتهد. ولانوجب علي أحد أن يقلده.
- 8 - لا يكون دستورًا يجب العمل به إلا ما قرره أكثرية الجماعة في دولتها. والدول تختلف، وتختلف مصالحها. والأمم تختلف وتختلف عوائدها في حياتها.
- 9 - نسلم لكل أحد حرته. ونسلم لكل قول ولكل فكر ولكل مذهب حرته.
- 10 - لا نسعي في توحيد الأفكار، ولا في توحيد المذاهب. وإنما نسعي إلى تأليف الأمم وإلى توحيد قلوبها.
- 11 - وأصل الأصول في الإسلام إنما هو توحيد الموجد وتوحيد المعبود. وليس توحيد الأفكار ولا توحيد مبادي الأفكار بمطلوب. بل اختلاف مبادي الأفكار طبيعي. واختلاف العوائد واختلاف مسالك الحياة واختلاف التدابير والطرق ووسائل الحياة رحمة واسعة وسعة.
- 12 - وإنما الضار الممنوع المحرم هو التعادي. وأول لازم علي الأمة اليوم هو رفع التعادي. وأول بركة الإسلام الذي كان الله من بها علينا هي قوله: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: 103]
- فأول التدابير هو تأليف القلوب. بالتزام التحرير وبالتزام الاحترام. كل أحد حر وكل أحد محترم.

فإذا تقرر هذا الأصل الإبتدائي فالشأن بعده يسير.

العلم وأسبابه (7)

أوجز كلمة جامعة لخلاصة الفلسفة، التي تعب ويتعب فيها فكر البشر من يوم خلق الله السماوات والأرض إلي أيامنا هذه قول الإمام النسفي في أول العقائد النسفية: 1 - حقائق الأشياء ثابتة. والعلم بها متحقق. وأسباب العلم كثيرة. العقل. خبر الصادق المعصوم. والحواس السليمة. فإن الفلسفة موضوعها ومرجع لك مسائلها الوجود والمعرفة. وهذه الجمل الثلاث قد جمعت العقائد الحققة في الوجود والموجود، وفي العلم والمعرفة وأسبابها.

يقول أهل الحق: 1 - إن وجود الأشياء حقيقي، ليس بوهم، ولا خيال. وإن حقائق الأشياء ثابتة في نفس الأمر وحق الواقع، وليست انتزاعية اعتبارية فقط. وعلم الإنسان بالحقائق والموجودات حق مطابق. وأسباب العلم وهي ثلاثة توجب العلم في الضروريات النظرية. والعقل والنقل حجة من الله بالغة. أقامها الله. ويعتبرها في كل الأمور الشارع. عليها بني نظام الحياة في المجتمع.

علم الإنسان بذاته، وبكل ما في قلبه من الإنفعالات والعواطف، وبكل ما في عقله من المعلومات والمعقولات علم حضوري لا يحتاج إلي تعليم ولا إلي صورة ولا إلي واسطة.

أما علم الإنسان بسائر الأمور، غير ذاته، وغير ما في قلبه وعقله فعلم حصولي لا يكون إلا بحصول الصور، وعلم إسمي لا يتعلق علم الإنسان إلا بأسامي الأشياء وبصورها ولا يحصل في عقل الإنسان حقائق الأشياء. ولا يعلم الإنسان شيئاً إلا بصوره وأساميه.

وهذه الخلاصة للفلسفة التي تتعب فيها كبار الفلاسفة يفيدها القرآن الكريم إفادة سهلة جامعة بينة ببيانه المحيط في قول الله جل جلاله: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 31 - 32]

هذه الآية الجليلة فيها إفادات جليلة 1 - إن علم الإنسان وعلم الملائكة كله تعليم من الله ليس لبشر ولا لملك علم فعلي إبداعي. وإن علم الإنسان وعلم الملك كله بالأسامي

فقط وبالصورة فقط. أما الحقائق فلا يعلمها لا بشر ولا ملك. لأن التعليم والإنباء يتعلق إلا بأسماء في نص الآية الكريمة.

عرض الله كل الموجودات وكل الحقائق للملائكة. ولم يذكر القرآن الكريم العرض في آدم. ولم يستثن القرآن الكريم اسمًا من الأسماء. فأفاد إفادة بسهولة إن الإنسان له أن يعلم كل الموجودات وكل الحقائق بأسمائها فقط، وتعليم الله فقط.

والقرآن الكريم يسند التعليم إلى الله فقط ويسند الإنباء إلى آدم فيفيد إفادة سهلة إن الإنسان في علمه لا يحتاج إلا إلى تعليم الله، وإن الإنسان لا يزال تلميذًا لله وهذا شرف عظيم كبير للإنسان، ولن يبلغ الإنسان إلى أن يكون معلمًا للملائكة أبدًا. لأن العالم لا نهاية له، وعمر الإنسان قصير لا ينبغي له أن يجلس على كرسي التعليم، قبل أن يدرك كل العالم. وهذه كرامة للإنسان في اجتهاده، ليس وراءها غاية، سبقنا إليه الغرب بأشواط. وهذه الكرامة مستفادة من القرآن الكريم. لأن القرآن لم يسند إلى آدم إلا الإنباء، لا التعليم: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۗ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 33] فالعقل تلميذ لله، شريك للملائكة.

فالعقل هو الشاهد الأول والحجة الأولى والسبب الأول في الحكم والعلم والسبب الثاني للعلم هو خبر الصادق المعصوم. وحيث أن الإنسان لا يحتاج إلى النقل إلا فيما لم يعلمه بعقله فالعقل هو الأول، والنقل هو الثاني.

وللإنسان حواس ظاهرة، خمس وزيادة. بها صلة الإنسان بغيره:

1- لامسة.

2- ذائقة.

3- شامة.

4- باصرة.

5 - سامعة.

وللإنسان قوة ناطقة. بما امتاز عن كل عالم الحيوانات.

وذكر القرآن العظيم الكريم كل هذه الحواس في سورة وآيات. ولم يذكر في معرض الإمتنان ومقام التكليف وكمال الأهلية إلا الثلاث الأخيرة الباصرة السامعة الناطقة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾

وأشرف الحواس وأقومها الباصرة. وأعمها فائدة وأهمها في احتياج الناس إليها السامعة. إن بطلت السامعة بطلت الناطقة والمفكرة ولا يبقى للإنسان إفادة واستفادة. وصلة الإنسان بالعالم الأعلى وبالعالم الروحاني لا تكون إلا بالسامعة والعاقلة: ﴿فاسمع لما يوحى﴾، ﴿فأوحى إلي عبده ما أوحى﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] ولا ينال الإنسان الغائب ولا يدركه إلا بالسامعة ولا يقوم الإنسان عمودًا علي إقدامه ولا يكون يقظا إلا بالسامعة، ﴿فضربنا علي آذانهم﴾ كُنَّتِ البلاغة الإعجازية عن الرقود بالضرب علي الآذان. لأن اليقظة واعتماد الإنسان علي إقدامه لا يكون إلا بالسامعة. السامعة بيدها عود الاعتدال: تجعله عمودًا علي مركز الثقل دائمًا.

الإنسان له عقله وفكره وله حواسه. وباعتبارهما ينقسم عالم الوجود بالنسبة إلي الإنسان قسمين كبيرين، لا نهاية لكل واحد منهما:

1 - عالم الغيب، كل ما لا يدركه الإنسان بإحدي حواسه.

2 - عالم الشهادة. كل ما يمكن أن يدركه الإنسان بإحدي حواسه.

ونحن صوفي الإسلام، نعتقد أن عالم الشهادة ملاً متشابه لانهاية له لا يحيط به الا موجوده. وإن عالم الغيب أعلي وأكبر وأجمل وأعجب من كل عوالم الشهادة وبني العالمين برزخ نسيمه عالم المثال. وعالم المثال في وجوده وتحققه وثبوتة أقدم وأكون وأحق وأثبت وأقوي وأوسع من عالم الشهادة.

الإنسان له بدنه وله في بدنه: 2 - القلب. والقلب نشاهده في الإنسان وفي الحيوان. وفي قلب الإنسان غريزة هي القوة العاقلة. ونسبة الغريزة إلى القلب مثل نسبة الباصرة إلى العين ومثل نسبة السامعة إلى الأذن. وهذه الغريزة هي القوة العاقلة تسمى قلبًا، كما تسمى القوة الباصرة بصيرًا. يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ ولم يرد شكل القلب. فإن لكل أحد ولكل حيوان. وإنما أراد القوة والغريزة.

والقلب مركز لكل الحواس، وكل حاسة تؤدي محسوساتها أولاً إلى حاسة القلب. وحاسة القلب تؤديها إلى الدماغ. ولو تعطلت حاسة القلب أو بطلت لبطلت كل الحواس يقول القرآن الكريم: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: 46]

والروح تحمل هذا البدن. وتحمل كل هذه الحواس وكل هذه القوي وللروح باعتبار إضافتها إلى محل حكم واسم يخصها هناك. إذا أضيفت الروح إلى محل البصر سميت بصيرًا. وإذا أضيفت إلى محل العقل وهو القلب سميت قلبًا. وهي في كل ذلك روح. فالقوة الباصرة والعاقلة والسامعة والناطقة روح باصرة وسامعة وعاقلة وناطقة. هي في الحقيقة هذا العاقل المدرك المحب العارف المحرك للبدن. يعبر كل إنسان عنها بقوله: أنا.

وعلم الإنسان بعقله أو بحواسه جزئي بكل معانيه. لأن العلم في الإنسان ليس عين ذاته ولا من ذاته ولا لذاته. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل: 78] يحتاج الإنسان في علمه إلى آلات وأسباب وشروط وإلى حصول صورة ما يعلمه في ذهنه.

وإذ لم يكن علم الإنسان من ذاته وكان يحتاج في علمه إلى هذه الأربعة فعلم الإنسان جزئي من جهات:

1 - جزئي زمنًا: حادث لم يكن من قبل، فإن لا يدوم ولا يقي. يزول بأضداده وبآفات مثل بطلان الحاسة والنسيان.

2 - جزئي في البعد والمسافة: لا يري ولا يسمع لا من قريب، ولا يري إلا المقابل.

3 - جزئي من حيث المتعلق: يعلم الإنسان إلا بالصورة والمثال. فكل شيء لا يوجد مثاله وصورته في ذهنه فالإنسان لا يعلمه. ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 85] ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لا علم للإنسان من ذاته. ثم لا يتعلق علم الإنسان إلا بمثال الشيء وصورته. لا علي عين الشيء وحقيقته.

قلنا إن علم الإنسان جزئي محدود في جميع جهاته. أما علم الله جل جلاله فكلّي في جميع جهاته، مطلق لا يتوقف علي شيء، فعليّ يكون مبدأ لانكشاف الأشياء ولوجودها. كامل محيط يعلم من كل شيء حقيقته وجميع ماله من الأعراض والأوصاف. وعلم الله متعال عن الجزئية. والله جل جلاله يعلم كل شيء: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [سبا: 3]

وهذه المسئلة، وإن كانت في بادي الرأي سهلة، قد تعبت فيها عقول. ووهمت عقول كبار أهل العلم. حتي نسبوا إلي أساطين الحكمة وأركان الفلسفة إنكار علم الله بالجزئيات. ولم ينج من الوهم إمام الفقهاء صاحب الإحياء تلميذ الصوفية الإمام المجتهد الغزالي. إذ أكفر وكفر الفلاسفة في مسائل، منها إنكار علم الله بالجزئيات. وهذا وهم. لأن الله لو لم يعلم الجزئيات لما أمكن أن يعلم إنسان شيئاً أصلاً أبداً. لأن علم الإنسان فيض من فيوضات علم الله، وظل ضئيل من ظلال علم الله.

لم ينكر حيككم فيلسوف الأجزئية علم الله لا علم الجزئيات.

ولصاحب الإحياء في إكفاره الفلاسفة أوهام.

وكما أن علم الإنسان جزئي محدود، كذلك كل ما للإنسان من كمال وقوة جزئي محدود مثل علمه جزئي محدود. ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28] في كل شيء. فإرادة الإنسان وقدرته، بل كل خواصه وحواسه جزئية محدودة. ﴿ وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [التكوير: 29]، ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: 53] فليس للإنسان

شيء من ذاته. إلا إذا فتح للإنسان باب الاستقاء من أنهار الله، وباب الاستفاضة من خزائن الله.

وهذا، أي الاستقاء من أنهار الله، والاستفاضة من خزائن الله والاستضاءة من أنوار الله هو المقصد النهائي من دعوة الإسلام. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۗ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (31) نَزْلًا مِّنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: 31 - 32].

فلا يكون لأنسان مشيئة نافذة وإرادة مطلقة إلا إذا كانت من وجه الله. نزلًا من عند الله. وذلك هو الفوز العظيم.

للإنسان في وصوله إلى العلم ثلاثة طرق:

1 - الأخذ من محسوس بإحدي حواسه.

2 - الانتقال من المعلوم إلى المجهول.

3 - التلقي من خزائن الغيب.

أما الأخذ من المحسوس فإن كان بصورة جزئية والمحسوس حاضر فإحساس: رؤية، سماع، لمس، شم، ذوق. وبعد غيبة المحسوس تخيل. وإن كان بصورة كلية فتعقل. القضية المنعقدة من الصور العقلية المأخوذة من المحسوسات تسمى بديهية. والانتقال من المعلوم إلى المجهول إن كان تدرجًا فنظر وفكر. وإن كان الانتقال دفعيًا فحدس. والتلقي من خزائن الغيب: 1 - كشف قد عبر عنه القرآن الكريم بالإظهار: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 26] ووحى، وإلهام، ووجدان.

فالمعتبر والمعتد به في مسائل العلوم من طرق العلم ثلاثة:

1 - التعقل وهو الانتقال من معلوم إلى المجهول.

2 - النقل.

3 - الكشف.

التعقل أهم هذه الثلاثة في احتياج الناس إليه. ولا يتم شيء ولا يتيسر حصول شيء لإنسان إلا به.

والنقل أحكمها إفادة وأيسرها حصولاً لكل أحد.

والكشف والوحي والإلهام أوسعها إحاطة وأقواها إفادة وأحقها وأصدقها مطابقة لنفس الأمر وللواقع. فإن الغيب خزانة لعلوم غير متناهية. فمن كان ذا اتصال قوي يمكن منه تلقي علوم لا يكاد يدرك شأوها. فإن الكشف والوحي والإلهام من الله جل جلاله.

وأكثر الأشياء بركة للإنسان في حياته وفكره وعلمه انكشف له بطريق الكشف لأحد من أهل العلم بعد طول الاجتهاد، أو بنفحة إلهية أثناء التفكير.

والعقل يفيد القطع بالبرهان. والنقل في الخبر المتواتر يفيد القطع بالضرورة. والنقل في الخبر المعصوم يفيد للقطع. والسنة مثل الآية تفيد القطع. وما في كتب أصول الفقه وكتب الكلام مجرد تشكيك. لا يتزلزل به قطعية الإفادة. وكل احتمال ليس له دليل يوجب، وهم مردود.

والكشف والإلهام يفيد القطع. بل الكشف والإلهام فرق العقل في إفادة. لأنه من الله. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورٍ مِّنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 35].

وما كان يعلمه لقمان في حكمته وسقراط في فلسفته، وبقراط في طبه، وارشيد في رياضياته، وفيثاغور في أسراره وإلهياته فأهم ما كان لهؤلاء الأساطين ولمن بعدهم من أهل العلم كان إلهاماً وكشفاً من الله. ببركة التعلم بعد طول الاجتهاد. وفطرة هؤلاء الكرام كانت مستعدة متوجهة إلى الله. وكانوا أصحاب قوة قدسية.

والبينة في عرف القرآن الكريم ما ظهر برهانه في الطبع والعلم والعقل. الشارع الكريم الحكيم في آيات الكتاب الكريم قد اكتفي بدعوة الضرورة. فلم ينزل فيها آية أمره واكتفي

بوازع الطبيعة فلم ينزل فيها آية ناهية. فدل هذا الاكتفاء علي أن حكم الضرورة وحكم الطبع والعقل كاف مغن معتبر.

قد كان في حكم العقل والطبع كفاية. ثم في الرسول وحده كفاية وفي الكتاب معه كفاية. جمع الله الكل فهدي الإنسان بعقله ورساله وكتبه. لتكون حجة الله بالغة. وعلم الإنسان أوسع.

وللإنسان خيال. وكان خياله يسبق عقله بعصور. فقد كان الخيال يصور للإنسان أمورًا لم يكن عقله يقبلها. نراها اليوم قد وقعت فالنبوة قد جاءت للإنسان بإيمان، يسبق العقل والخيال بدهور.

وكل ما جاء به الإيمان من الحقائق التي لا يقبلها العقل اليوم فإن العقل بعد قريب من الزمن سيعلمها علم اليقين. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 6 - 7] والنقل. والإنسان يعلم بعقله. وحيث أن علم الإنسان جزئي محدود يحتاج في توسيع علمه إلى

فالنقل معتبر في توسيع العلوم فقط. ولانرد أصلاً العقل ودليل العقل بالنقل. ولا نرد أصلاً أبداً النقل بالعقل. ولا نرد أصلاً أبداً النقل بالعقل وبدليله.

وأكثر الفرق ضللاً عندنا من يطل العقل ودليل العقل بالنقل بدعوي التعارض. ودعوي التعارض وهم. وأشد الفرق غروراً من يستدرك علي الله أشياء مدعيًا إن الله لم يحكم فيها بشيء. وأشد الفرق إباء واستكباراً من يتحكم عند الله بعقله فيوجب عليه أو علي عباده بعقله أحكاماً لم يأت النقل فيها بشيء. للعقل أن يدرك كل شيء وليس له أن يحكم علي آخر شيء.

بَيِّنَّا العلم وأسبابه. وأعلي أسباب العلم وأصل أسبابه: تعليم الله جل جلاله. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾.

والله جعل لعلم الإنسان أسبابًا وطرقًا: 1 - العقل، 2 - الاحساس. ومنها الوحي من الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ [الشوري: 51] ﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر: 15].

يلقي الروح: 1 - روح الرسالة والنبوة. 2 - روح الكشف، 3 - روح الحياة.

نعلم وندرك الأشياء: 1 - بالاحساس، 2 - بالاستدلال. يعلم وجودها بآثارها. ولا تدركها الحواس. وأكثر معلومات الإنسان وأقواها يعلم بالاستدلال، لا بالاحساس. ومثاله الضروري القطعي هذه الحواس أنفسها والقوة والقدرة والعلم والإرادة بل أكثر أحوالنا الروحية. من كتب بين يديك عرفت اقتداره علي الكتابة وعرفت علمه بنوع من الكتابة، وحزمت بإرادته. كل ذلك بالاستدلال. وأكثر الموجودات والحقائق معلوم بالاستدلال عليها بآثارها لا بالاحساس. والعلم بالاحساس والتخيل وإن كان محققًا إلا أن العلم بالاستدلال أحق وأثبت وأجمع وأنفع. ويظن كثير أن العلم احساس وتخيل. وإن ما لا يتخيل فلا حقيقة له ﴿ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ ﴾ [الشوري: 52]، نورًا به الإدراك. والنور الخارجي لا يدرك، ليس بمدرك وليس به الادراك بل عنده الادراك.

النور الباصر أحق بالإظهار من النور المبصر. والانسان له بصر وله بصيرة. فالبصر هو العين الباصرة. والبصيرة هي القوة العاقلة. وكل واحد من الإدراكين يقتضي نورًا. ونور العقل أشد وأقوي من نور العين. لأن القوة الباصرة لا تدرك ولا تدرك إدراكها وآلاتها. والقوة العاقلة تدرك نفسها. فنور العقل أكمل من نور البصر.

العاقلة تدرك الكليات ، والباصرة لا تدركها. وإدراك العقل منتج. وإدراك الجزئي لا ينتج. والباصرة لا تدرك إلا السطوح والألوان والعاقلة تدرك ظاهر الأشياء وباطنها. القوة العاقلة يعلم الله، والظاهرة تعلم الألوان. منزلة آيات القرآن منزلة نور الشمس، ونور العقل يشبه نور العين. ﴿ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [التغابن: 8].

والقوي المدركة كلها أنوار من الله. ومراتب القوي المدركة خمس:

- 1 - الحساسة. هي التي تتلقي ما تورده الحواس الخمس. وكأنها أصل الروح الحيواني. بها يصير الحيوان حيواناً. وهي موجودة للصبي، وللرضيع.
 - 2 - القوة الخيالية. هي التي تثبت ما أوردته الحواس وتحفظه عندها. لتعرضها علي القوة العاقلة عند احتياجها إليه.
 - 3 - القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية.
 - 4 - القوة الفكرية هي التي تأخذ المعارف العقلية، وتؤلفها تأليفاً تستنتج منه علماً بالمجهول.
 - 5 - القوة القدسية. تتجلي بها لوائح الغيب وأسرار الملكوت. لعلها هي المراد بقول الله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشوري: 52].
- عقدت "باب العلم وأسبابه" تمهيداً لبيان الأدلة. فإن الدليل هو ما يوصل فكر الإنسان إلي العلم التصديقي. والعلم يحصل [1 -] بالإحساس. 2 - بالعقل، 3 - بمقدمات راجعة إليه. مهدت ذلك ليكون الطالب الراغب علي حفظ واستعداد في فهم المسألة.

الأدلة في شرع الإسلام (8)

من سعة الإسلام ومن عظيم احترامه للإنسان ولإيمانه أن الإنسان إذا ما اعتقد الحق واطمأن به قلبه فإن الكتاب الكريم لا يطالبه ببرهان في إثبات عقيدته الحقّة. وإنما يكلف البرهان من يدعي الباطل أو يعتقده. ولا يكلف البرهان من يعتقد الحق. ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ [الأنبياء: 24] وحيث أن الكريم لا يؤاخذ أحداً بمخالفة

دليل العقل لذلك أشار وقال ﴿ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ﴾ . ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [الحج: 8] [لقمان: 20]

1 - ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أتاه من الله علي لسان أحد أصفياه. سواء كان حقًا أو كان كذبًا وضع علي لسانه. ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ أرشده إليه عقله. أعم من أن يكون بضرورة أو باستدلال. ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾، صح لديه أنه من الله.

2 - ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هو العلم الضروري، ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ هو العلم النظري، ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾، هو الكتاب الكريم في أمتنا.

3 - ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ من تقل أو عقل، ﴿ وَلَا هُدًى ﴾، يهدي الإنسان به إلي الصواب، ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أنزله الله.

﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: 184] البيّنات هي البراهين القطعية. والبينة في عرف القرآن الكريم ما ظهر برهانه في الطبع والعلم والعقل.

الزبر كتاب المواعظ - ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ﴾ [النحل: 125]
الكتاب المنير - كتاب القانون والشريعة في الاجتماعيات وفي الآداب.

الأدلة المذكورة في هذه الآيات الكريمة كلها معتبرة في شرع الإسلام والنقل مثل دليل العقل يفيد القطع واليقين. والإنسان يحتاج إلي دليل النقل في توسيع علومه فقط. لا في رد العقل. ونحن لا نرد أصلًا أبدًا العقل ودليل العقل بالنقل، ولا نرد أصلًا النقل بالعقل. ولم يأت في الكتاب الكريم حرف يعارض العقل.

علم القلب السليم وحكم العقل الصحيح الصريح اعتبره الكتاب الكريم في شهادة التوحيد وفي شهادة الوجود: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: 18] جعل شهادة أهل العلم في درجة شهادة الله. وجعل شهادة الله في وحدة الله وفي وجوده إقامة للقسط.

قد يكون أن الإنسان بنور عقله وبشهادة قلبه يطلع علي أصول الشرائع قبل بعثة الرسل. ونزول القرآن الكريم يكون تفصيلاً لمحمل ما في قلبه وما في عقله. ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. والبينة من الله هي الذي نسميه وجدان الإنسان ونسميه ضمير الإنسان. هو مبدأ إلهي سمِّي ينجي عقل الإنسان في غالب الأحيان يجده كل إنسان في قلبه. وإرادة الإنسان الحرة قد توافقه وتنفذه، وقد تخالفه. فكل إنسان يحمل في نفسه قانوناً ومحكمة تحكم بالبراءة أو بالإدانة، فإن كان قلب الإنسان سليماً يحصل في قلبه الرضي الجميل إن كان عمل خيراً، ويحصل في قلبه الندم الثقيل إن كان عمل شراً. وهذا الذي يجده الإنسان في نفسه أوضح من كل بينة وأعجب من كل ما يعجبنا. ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88 - 89] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83] كون الإنسان علي بينة من ربه قبل نزول القرآن، ثم فعلية الاستثناء من اتباع الشيطان لو لم ينزل الكتاب الكريم بيان جليل جلي جميل واضح أن الإنسان بنور عقله قد يطلع علي أصول الشرائع قبل بعثة الرسل. والكتاب بيد الرسول يكون تأييداً لما في قلب الإنسان ولما في عقله. وفي الأمة من أمثال هؤلاء رجال. منهم الصديق رضي الله تعالي عنه والفاروق رضي الله تعالي عنه ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]

قد كان في عقل الإنسان ونور عقله وسلامة طبعه كفاية ثم في الرسول وحده كفاية، وفي كتابه كفاية. جمع الله الكل فهدي الإنسان بعقله ورسله وبكتبه. ليكون حجة الله بالغة، وعلم الإنسان أوسع. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] "هذه سبيلي وسبيل من اتبعني" "ادعوا إلي الله أنا ويدعو من اتبعني" "علي بصيرة أنا وعلي بصيرة من اتبعني".

هذه الآية الكريمة تفيد هذه الجمل الثلاث إفادة واحدة علي حد سواء. والتأكيد بالضمير المنفصل قبيل العطف يهدينا إلي ذلك. ومثل هذا في الكتاب الكريم قول الله: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112] فاستقم كما أمرت ومن تاب معك.

" فادع أنت، وليدع من تاب معك " "واستقم أنت وليستقم من تاب معك " "كما أمرت أنت " وكما أمر من تاب معك "

والعقل المستقيم للعالم الحكيم هو المقياس الحق لكل شيء العلم ثلثة. وما سوي ذلك فضل (من الفضيلة) آية محكمة، سنة ماضية، فريضة عادلة. آية محكمة هي علم معاني القرآن الكريم. سنة ماضية من النبي الكريم قائمة اتفق عليها الجمهور الصحابة والتابعين نقلها إلينا عمل الصحابة وعمل التابعين. فريضة عادلة هي علم القضاء. يدخل فيها قضايا الإمام الفاروق رضي الله تعالى عنه وقضايا الصحابة في حوادث قد وقعت.

وللقاضي الحكيم أن يعمل في قضائه برأيه. الرأي في الدين وفي الإفتاء تحريف. أما في القضاء فالرأي حسنة ومكرمة وحكمة. وهو الفهم الذي أوتيته سليمان عليه السلام، لا داود عليه السلام: ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ [الأنبياء: 78] والقاضي من الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم كان يحكم برأيه ويقضي برأيه: بما يراه حقًا باجتهاده. روي المبسوط (2: 30) عن الإمام خليفة رسول الله الصديق رضي الله تعالى عنه إني لم أسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، في توريث ذوي الإرحام شيئًا. ولكني ورثتهم برأيي. والرأي كان في القضاء ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: 105]

بما أراك الله: 1 - بالوحي، 2 - باجتهاد جار علي سنن الوحي في العصمة لا يكون رأي النبي خطأ. ولو وقع خطأ فالنبي لا يقر عليه، ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ فكان النبي الكريم يصبر وينتظر. ثم يحكم باجتهاده.

وقد وقع من النبي الكريم الحكيم العظيم هم ورأي في أمور أرادها ثم تركها إذ لم يكن في حكم وقضاء:

1 - منها الغيلة. في الحديث: لقد هممت أن أنهي عن الغيلة. حتي ذكرت أن الروم والفرس يصنعون ذلك. ولا يضر أولادهم اعتمد علي تجرية الناس وترك همهم. وهذا الهم من

النبي الحكيم كان اهتداءً نبويًا فيه صلاح عظيم. فإن أم الرضيع تحمل ويفسد اللبن بالحمل ويتأدي الرضيع، وتضعف الأم بتواتر الحمل، وفيه فساد النسل. وكان هما ورأيًا علي سبيل الإرشاد.

وحكم الشارع الحكيم علي سبيل الإرشاد إذا كان فيه بعض ضيق لبعض الناس من جهة الطبيعة فالشارع الكريم يتوب من إيجاب إرشاده ويخلي هذا البعض. شاهده في الكتاب الكريم. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: 187] فإن الصيام عن النساء في شهر رمضان فيه تقوية للقوي البدنية، وفيه تحسين للنسل. ولذا سمي الكتاب الكريم خلاف هذا الإرشاد بالاختيان. وأقر حكمة هذا الإرشاد في البعض فقال: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾. فهذه الآية الكريمة الحكيمة فيها رفع حرج ورفع ضيق عن الطبيعة. وفيها إرشاد حكيم للعقل إلي مصلحة الصحة والقوة.

2 - منها النهي عن تأبير نخل المدينة. وإذ ظهور بعد مدة وحين خلله وفساد في النخل تاب ورجع. النهي كان لمصلحة الإيمان. لتعليم إن الأسباب كلها جارية علي السنن الإلهية علي العادة. فإن الأسباب أسباب عادية. والمبدأ الأول والسبب الأصلي هو حكم الله الكريم جل جلاله. وهذا معني قول الشارع الحكيم: أنتم أعلم بأمور دنياكم "تركهم وخلافهم يعلمون بالسنن الإلهية، بعد أن أرشدهم إلي حق العقيدة وإلي أصل الإيمان: إن كل شيء في الكون إلي الله ومن الله: "جميعًا منه" وإن جميع ما في الكون منه ابتداء وإن الأسباب كلها جارية علي العادة.

النبي الكريم كان يعلم كل القرآن الكريم بتعليم الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: 7] ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: 36] وكان يعلم أن التلقيح من السنن الإلهية ومن يزعم ويتوهم أن النبي الكريم كان أجهل من أهل المدينة، وكان لا يفهم حق الفهم آيات الكتاب الكريم ولا يفهم معاني كلماتها فقد تهور باغتراره وتقدم بين يدي الله ورسوله ورفع صوته فوق صوت النبي في تجهيله.

3 - اقطع لاحد من الناس المعدن العد للإحياء. وإذ تبين أن المعدن لا يحتاج إلى أحياء، تركه يشترك فيه الناس.

أصول أدلة الشرع

المشهور المعروف من قول أئمة الفقه أن أصول الأدلة في الإسلام أربعة:

1 - الكتاب.

2 - السنة.

3 - الإجماع.

4 - اجتهاد الأئمة بالاستنباط والقياس.

والآن بعون الله جل جلاله نبين إن شاء الله كل هذه الأصول الأربعة بإيجاز واف وبإجمال يهدي إن شاء الله أهل الرغبة من كرام الطلبة إلى التفصيل. ثم نبين إن شاء الله سائر الأدلة التي جعلها كتب الأصول من فروع الأدلة. وسيري الطالب في الكتاب من هدي الله مزيداً إن شاء الله.

الكتاب الكريم القرآن العظيم (9)

القرآن الكريم هو أصل الرسالة وبرهان الرسالة، توفي الله نبيه إليه، وبقيت رسالة الإسلام إلى يوم القيام تحمله الأمة الكريمة، بقاء الكتاب الكريم. والأمة الكريمة خليفة نبيها الكريم في تبليغ الرسالة إلى كل الأمم. ولا ينبغي لأحد أن يكون في قلبه توهم انقطاع الرسالة، والرسالة باقية ظاهرة بقاء الكتاب الكريم.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر: 41] نزل الكتاب الكريم علي النبي العظيم، والغاية الإلهية هي الأمة.

الكتاب الكريم كلية الشريعة، عمدة الأمة، ينبوع الحكمة، نور العقل هدي الفكر، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ الحكمة هي معاني القرآن الكريم.

آيات الكتاب الكريم كلها:

- 1 - قطعية.
 - 2 - توافق حكم العقل.
 - 3 - توافق مصلحة الأمم.
 - 4 - كلها عامة، لم يطرأ علي عمومها تخصيص.
 - 5 - كلها معقولة يقبلها كل أحد.
 - 6 - كلها سهلة يفهما كل أمي.
 - 7 - محكمة ثابتة راسية لازوال لها.
 - 8 - آيات المصاحف لم ينسخ منها شيء، حكمها باق ببقاء نور الشمس في السماء.
 - 9 - الآيات كلها حاكمة تفيد الحكم وتوجب العمل.
 - 10 - براهين عقلية في المسائل النظرية، براهين اجتماعية في الاجتماعيات. وتعاليم وتكاليف في الأمور الأدبية والشرعية، أدلة قاطعة في إيجاب الحكم علي الأمة.
 - 11 - كلها واضحة جلية، ليس في بيان الآيات إبهام وليس فيه اشتباه.
 - 12 - والله جل جلاله نزه كتابه الكريم من كل باطل، ومن إمكان أن يكون قول الله في كتابه الكريم يناقض فعل الله وحكمة الله في خلقه، ونزه كتابه الكريم المبين من سوء البيان ومن الغفلة والنسيان. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۗ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۗ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 41 - 42].
- ونحن ننزه شرف الكتاب الكريم:

1 - من القول بالتوقف في اتباع ظاهر الكلام.

- 2 - من القول بالتوقف في وجوب الحكم.
- 3 - من القول بالتوقف في فور الوجوب.
- 4 - من القول بالتوقف في عموم الكلام.
- 5 - من القول بصرف الكلام عن ظاهره إلى تأويل.

فإن كل هذه الخمس الأخيرة كيد في الدين من مذاهب الكلام التي فرحت بما عندها من الأوهام. وحقا بما كانت تستهزئ به.

المصحف الكريم أشهر كتاب في العالمين. تعريفه هو الإشارة إليه. ولك ما في هذا المصحف الكريم هو القرآن الكريم كلام الله رب العالمين تلقاه النبي العظيم محمد من لدن حكيم عليم. هو الكتاب الذي نزل به الروح الأمين علي قلب محمد تنزيل من رب العالمين. تلقاه النبي محمد من لدن حكيم عليم وحفظه. وتلقاه الصحابة الكرام من النبي الكريم وحفظوه وكتبوه.

القرآن كلام الله. كل القرآن الكريم، وسورة من القرآن الكريم وآية من آيات القرآن الكريم كلام. حقيقة لغوية وحقيقة شرعية وحقيقة علمية. سمي قرآنًا لأنه قد جمع كل كتاب نزل قبله علي رسول من الرسل وسمي فرقانًا. والفرقان كتاب بنوره يمتاز الباطل عن الحق، ويمتاز الشر عن الخير، ويمتاز الفاسد عن الصلاح.

ولكل متكلم في كلامه أمور:

- 1 - المبدأ النفسي للكلام. وصف للإنسان مثل كون العلم والإرادة والقدرة وصفاله.
- 2 - المعاني. هي معلوماً المتكلم ومقاصده التي يريد أن يفيدها لآخر.
- 3 - كلمات ذهنية مخيلة يتخيرها ويرتبها. ويقال لها حديث النفس.
- 4 - إذا أخذ الإنسان يتكلم يأتي بكلمات لفظية مسموعة، يسمعه هو ويسمعه

المخاطب.

هذه الأمور الأربعة يجدها كل إنسان في نفسه، ويشاهدها عند الكلام لله جل جلاله علوم ومعلومات يوحىها إلي عبد من عباده. والإيحاء والتلاوة كلام.

فله جل جلاله في ذاته من ذاته مبدأ ذاتي لكلام الله. وكلام الله كلمات أزلية غيبية مؤلفة مترتبة لكنها غير متعاقبة. مثل كلمات مؤلفة مترتبة مكتوبة علي الصحف كلها موجودة في آن وفي كل آن.

والقرآن الكريم قرآن كريم لكلام الله وهو في علم الله المحيط القديم: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: 4] والقرآن الكريم كلام إلهي كلمات إلهية وقد نزل به الروح الأمين علي قلب محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم كلام إلهي كلمات إلهية إذ حفظه إنسان. ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ والقرآن الكريم كلام إلهي كلمات إلهية مسموعة إذ يتلوه أحد. ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن: 1] ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ [الأعراف: 204] والقرآن الكريم قرآن كريم كلام الله كلام إلهي مكتوب، وهو في المصحف والصحف أو الألواح ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21 - 22] ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس: 13 - 14] ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: 77 - 78]

والقرآن الكريم:

- 1 - في علم الله.
- 2 - في أم الكتاب لدي الله.
- 3 - في قلب الروح الأمين وفي لسانه.
- 4 - وفي قلب النبي الكريم وفي لسانه العربي.
- 5 - في صدور الذين أوتوا العلم.

6 - في الصحف والألواح والمصاحف.

في كل هذه المراتب الست كلام الله. حقيقة لغوية من غير تجوز أصلاً. حقيقة شرعية بكل محكمات القرآن الكريم.

وخلاف ذلك، وإن وجد في كتب الأصول وكتب الكلام، لا ريب أنه وهم من الإهام. أثر تشكيكات وهمية.

وكلام الله الذي اخترق كل حجب الكون وتحلي في هذه المظاهر لا يتأثر من أثر هذه المظاهر. والصوت المسموع بأذاننا والكلمات المتلوة بألسنتنا وإن كانت حادثة لا يوجب حدوث كلام الله الذي تحلي فيها. والله جل جلاله أن يتحلي بما شاء وكيف شاء ومتي شاء. والله في كل تجلياته منزه عن آثار المظاهر. وهو في غاية تعاليه قريب. لا تقديه المظاهر له الإطلاق. بل هو أجل وأعلي عن قيد الإطلاق.

مسألة خلق القرآن الكريم بدعة كاذبة خاطئة وفتنة جاهلة ظالمة طاغية. حدثت بطغوي فئة مفسدة زمن الخلافة العباسية امتحن فيها كبار الأئمة وجلد جلد إهانة وجلد احتقار إمام الأئمة وإمام الحق أحمد بن حنبل.

نحن نقول، قول أهل العلم وأهل الحق وأهل العقل: إن القرآن الكريم كلام الله جل جلاله قدسم، مثل قدم علمه وقدرته وكل أسمائه، غير مخلوق كما أن علمه جل جلاله غير مخلوق. وكلام الله متلو بألسنتنا، مسموع بأذاننا محفوظ في صدورنا مكتوب في مصاحفنا. غير حال في شيء من هذه الأربعة. وتنزل القرآن الكريم، وهو علم الله وكلام الله في تلك المظاهر لا يقدر في قدمه. ولا ينافي كمال تنزهه. والقرآن الكريم علم الله وكلام الله. ومعني تنزيله ومعني إنزاله إظهار صورته في المرايا الروحانية العقلية الحسية. وظهور صورة شيء في مرآة من المرايا لا يغير هذا الشيء، ولا يؤثر فيه بوجه من الوجوه. وحال الصورة يؤثر في ذي الصورة.

والله جل جلاله إذ نادى موسى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (79: 16) (28: 30) ناداه بصوت مسموع حادث بحرف مسموع حادث سمعها موسى من الله جل جلاله الذي تجلي له بنوره مظهر النار، وكلمه بلا واسطة من وراء حجاب النار. وحدوث ما حدث لم يناف قدم القلم. والقرآن الكريم علم الله كلام الله أوحاه الله إلي عبده محمد صلى الله عليه وسلم وتلاه عليه بكلام مسموع ألفه الله في غيب ذاته: معانيه من الله، ونظمه وتأليفه من الله.

﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: 16 - 18] ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]، والقراءة والتلاوة والتنزيل من الله. ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252] كل هذه الآيات الكريمة وآيات ترادف هذه الآيات الكريمة نصوص عبارة علي أن القرآن الكريم كلام الله نظمه وتأليفه من الله.

القرآن الكريم معجز: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] والقرآن الكريم هو الروح الذي قال الله جل جلاله فيه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۗ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وإذا أسند السؤال إلي ضمير الغائب المعلوم للمخاطب فالروح في الآية يحتمل أن يكون روح الحياة، وأن يكون الروح الأعظم روح القدس، وأن يكون القرآن الكريم. والجواب حق حكيم لكل السؤالات الثلاثة.

لأهل العلم في وجوه إعجاز القرآن الكريم إفادات كلها حقة علي طبقات بعضها فوق بعض. أما أنا فأني أرفع شأن الكتاب الكريم من أن أقيس بلاغته بمقياس بلاغة شعراء جاهلية العرب. حتي لو ثبت بمقياس بلاغة شعراء العرب وبلاغة خطبائها كون الكتاب

الكريم علي نهاية البلاغة فلا يكون البلاغة إلا وجهًا من وجوه الاعجاز، بالنسبة إلى الأمة العربية. ورسالة القرآن الكريم تعم جميع البشر.

روي الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال: ما من نبي إلا قد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وكان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي. فارجو أن أكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيام.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (سورة الشوري (51: 53) فالوحي والكتاب الكريم روح من الله يجيي الأمم قلوبها وعقولها، يهديها إلى صلاحها وسعادتها في الدنيا وفي الحياة الأبدية.

فجهة البلاغة في نظمه وروح الأحياء والهداية في علومه وفي معانيه كل واحد منهما وجه من وجوه اعجازه.

وبلاغة النظم في كون بيانه جامعاً محيطاً لا يكون فيه غفلة وقصور. لا بمجرد الوجوه الابتدائية (البدوية) التي في كتب البلاغة وكتب البديع. ومن وجوه الاعجاز في عقيدتي: أن البلاغة الاعجازية تكشف عن حقائق قد غفلت عنها عقول البشر في دوام العصور.

والكتاب الكريم قد فصله الخبير الحكيم علي سوره: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: 1]

سور الكتاب الكريم = 114:

1 - قصار.

2 - مثان.

3 - مئون.

4 - طوال.

علي حسب عدد آياتها. وكل سورة لها اسم.

ولسور ترتيب في نزولها. وهذا الترتيب كان بعلم الله وإرادته وكان الصحابة رضي الله عنهم يشاهدونه في مدة نزولها. ترتيب النزول هو الأول والأثبت.

وللسور ترتيب في المصاحف. كان بالوحي من الله، وبالتوقيف من روح القدس، وبالأمر من النبي الكريم. فلم يكن في ترتيب المصاحف اختلاف بين الصحابة الكرام.

وكل سورة باعتبار فواصلها فصلت علي آياتها. وعدد الآيات في كل سورة معلوم. كان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يعدها عدًا. وكان الصحابة رضي الله عنهم يعدونها عدًا. ولم يقع اختلاف في العدد إلا في بعض الفواصل.

وعدد الآيات في العد البصري = 6204

وعدد الآيات في عد الكوفي = 6236

بسم الله الرحمن الرحيم كلام الله قطعًا. البسمة في أول كل سورة كانت تنزل بنزول السورة، آية كاملة فذة مستقلة ولم تنزل في أول براءة. فالبسامل في الكتاب الكريم = 113. وبسمة الفاتحة من الفاتحة فالبسامل الفذة = 112.

فآيات الكتاب الكريم = 6348 في العد الكوفي.

وللناس في مسألة البسمة أوهاام بثها وأشاعتها كتب المذاهب في شروحها وحواشيها. ولا ينبغي بعد اليوم إقرارها أصلًا.

والمعتمد في مثل هذه المسائل هي المصاحف. وقد أجمعت المصاحف علي إثبات البسامل كتبت البسامل في المصاحف:

1 - بقلم الآيات.

2 - بحبر الآيات.

3 - في فضاء بين السورتين.

4 - في سطر علي حدة.

فالبسمة في أول كل سورة آية كاملة، مستقلة فذة. هي من القرآن الكريم. اجمعت الأئمة علي أنها ليست جزءاً من السورة لم تنزل في أول سورة التوبة. ليكون عدد البسامل في الكتاب الكريم علي قدر عدد سور القرآن الكريم. فإن سورة النمل في أولها وفي قلبها بسمة. الكتاب الكريم نزل بلسان عربي مبين. واللغة العربية لها بطبيعتها وجوه أدائية بين لغوية صرفية نحوية. والفصيح من هذه الوجوه الأدائية نزل عليه القرآن الكريم. وثبت ثبوتاً لا ريب فيه: أن القرآن أنزل علي سبعة أحرف. فاقروا ما تيسر منه. متفق عليه.

والأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن الكريم هي الوجوه الأدائية التي توجد في اللغة العربية بطبيعة اللغة.

والوجوه الأدائية لا تختلف باختلافها لا عدد الكلمات، ولا موادها ولا رسمها. ولم يقع بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم اختلاف إلا بالوجوه الأدائية.

وبعون الله الكريم وبفضل الله العظيم كتبت كتاب ترتيب السور الكريمة وكتاب حروف أوائل السور وفيهما في حقائق مسائل الكتاب الكريم بيان ينحو به أهل الرغبة من كرام الطلبة من الحيرة والأوهام.

والأمة لها أن تستغني بكتابتها الكريم عن كل شيء، إذا أخذ أبنائها وافر حظوظها من المعارف العمومية الطبيعية الرياضية الاجتماعية فإن من ليس له حظ من هذه العلوم ففهمه معاني الكتاب الكريم ضعيف معدوم.

من أعظم نعم الله علي الأمة في كتابه الكريم ومن أجل محاسن الكتاب الكريم حفظ كما نزل. وفيه كل ما يحتاج إليه كل أحد في حياته. وفيه كل ما يحتاج إليه كل عالم في كل مسألة.

وكان النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يستنبط سننه من القرآن الكريم. ومن أسلوب الكتاب الكريم أن يأتي بمثال جزئي لأمر كلي وينبه علي الاستنباط من المثال.

مثل قوله: ﴿ وَيُؤَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: 221] ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظُمُ بِهِ ﴾ [البقرة: 231]

نحن من بين الأمم لا نعرف من كتابنا القديم العظيم إلا القليل قل عندنا اليوم من صحت عزيمته علي النظر إلي القرآن الكريم وفي القرآن الكريم نظر علماء الغرب إلي أدب اليونان والرومان وإلي أدب العالم القديم.

السنة (11)

السنة في اللغة وجه الشيء وظاهره.

تريك سُنَّةٌ َ وَجِهٍ غَيْرِ مَقْرِفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدَبٌ

وقد قدمنا معني: سنة الله: سنة الأولين، سنة النبي الكريم. وأصل المعني أول ما يظهر ويبد وعند المقابلة.

عامة آيات الكتاب الكريم في الإيمان وأدب الحياة وفي الأحكام بينة مبينة، نزلت بلسان عربي مبين. وإذا ورد البيان فالأصل في البيان قول النبي الكريم، فعله، وإقراره. بل كل حياته وكل سيرته بيان للكتاب الكريم. ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: 44].

وأول البيان وأصل البيان هو تبليغ ما نزل ساعة نزوله كما نزل. ثم بيان المعني وبيان قصد القائل بأقواله وأفعاله وبأدب حياته وبسيرته وقضاياها: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾.

والبيان في قول الله جل جلاله: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۗ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ سورة النحل (64) لهم لأهل الكتاب. والذي يبين هو نفس الكتاب الكريم. لا فعل النبي الكريم ولا قوله.

وسنن الصحابة الكرام من حيث كونها اقتداء بالنبي الكريم سنن مرفوعة، سنن قائمة ماضية. نقلها إلينا عمل الصحابة والتابعين، لا يمكن أن يكون فيها شيء موضوع أصلاً. وهذا هو الذي نريده إذا قلنا أن الأمة في تحمل الشريعة من نبيها معصومة مثل عصمة النبي في تحمله من جبريل عليه السلام.

والأمة في تبليغ الشريعة الإسلامية بكل نصوصها معصومة مثل نبيها في التبليغ إلى الأمة. والقرن الأول في التحمل والتبليغ هم الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وسنة السلف وسنة الأوائل إذا كان فيها معني حكيم له فائدة اجتماعية لا ينبغي خلافها كما أن كل أمر في وضعه فائدة فإن عدول الخلف لهم أن يضعوه.

والأصل في الفقه وفي شرع الإسلام إن كل شيء يترتب عليه صلاح فرد أو صلاح مجتمع مشروع مطلوب. وقد قال إمام الأنبياء صاحب القرآن الحكيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم: من سن سنة حسنة فله أجرها واجر من عمل بها. ومن سن سنة سيئة فله وزرها وزر من عمل بها. فالسنة:

1 - سنة نبوية ثابتة.

2 - سنة وضعية وضعها حكماء الوقت لصلاح المجتمع.

والمشية الإلهية لا تتعلق بابطال سنن الله في المجتمع. ولا بابطال حكمة الله ونظامه في خلقه. والكتاب الكريم يقول: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: 26] فالسنن التي فيها صلاح المجتمع، سواء كانت سنن أمم سابقة أو سنن قرون سابقة في الأمة الإسلامية هي هداية يريد الله أن يهدينا إليها.

إمام الأنبياء خاتم النبيين صاحب القرآن الكريم محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وصاحبيه وسلم، قد أمر أن يقتدي بهدي الأنبياء السابقة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فِيْهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: 90] فالهدي التي فيها صلاح المجتمع لا يتعلق بنسخها مشيئة إلهية أصلاً.

فمن قال: إن العلم ثلاثة:

1 - آية محكمة.

2 - سنة قائمة.

3 - فريضة عادلة.

فلم يستثن من قوله سنة قائمة شيئاً من السنن التي فيها صلاح المجتمع. وقد أقرها القرآن الكريم في آياته التي تقدم بعضها وقد أقرها الشارع الكريم في قوله الجامع: من سنة سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها. وقول الله جل جلاله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (96: 7) لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وعبها.

ومن عصمة الدين الحق أن أيدي الوضع لم تمس مشاريع الشرع ولا مشاعر الدين بشيء ليس من الدين. فلم يوجد في هدي النبي الكريم ولا في سننه الثابتة ولا في سيرة حياته النبوية موضوع. فهدي النبي الكريم وسننه وسيرة حياته النبوية بقيت عندنا وصلت إلينا خالصة نقية. وإن كثر الموضوع في الأخبار والقصص المرفوعة إلى النبي الكريم وضعاً.

وقد يوجد في السلف من يسأل اليهود والنصارى عن بعض الأمور. فحدث الاضطراب ووقع الاختلاف في الأخبار والقصص. ولم يقع اضطراب في أمور تتعلق بالشرع. وثبوت الوضع في الأخبار والقصص، وكثرة الوضع فيها لا يتزلزل به كون السنة الثابتة حجة قطعية علي أنها أصل أول في الدين وفي الأحكام الشرعية والاجتماعية وبأيدينا موازين وغرايبيل بحمد الله.

والأحاديث لها أسانيد ولها متون. والأئمة قد فرغوا من بحث الأسانيد تمام الفراغ. وبقي لنا كل الحق أن نبحث في متون الأحاديث فإذا وجدنا المتن يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول نحكم حكم القطع أن المتن موضوع علي الرسول. هذا هو ميزان الصحة في الأخبار يميز الحبيث من الطيب. ونحن في غني عن هذا الميزان في هدي النبي الكريم وفي سننه وسيرة حياته وفي باينه الكتاب وفي قضاياه إذ لا يمكن أن يوجد فيها مثل هذا.

عمل النبي الكريم هو الأصل الأول من الأصول الأربعة. وهو القانون الأول بين القوانين الشرعية، إذا كان بياناً لحكم الكتاب، أو كان تعليماً ليقنتدي به الأمة. أما إذا كان عمل النبي الكريم خاصاً بالنبي الكريم، أو كان عادة قومية للعرب في زمنه فلا يكون قانوناً عمومياً للأمة. والفرق ظاهر تمام الظهور، وإن خفي علي بعض الرواة، وقد يخفي علي كثير من الناس.

ويجب علي الفقيه أن يكون علي بصيرة وعلي بصر عند نظره في عمل النبي الكريم وفي قوله. فإن الراوي يمكن أن يقع في اشتباه لسبب من الأسباب، كما وقع من أبو هريرة رضي الله تعالى عنه في بعض رواياته وقد كان أكثر الصحابة رواية حديث وإن كان متأخر الصحبة. فقد روي إن الشارع الكريم، صلي الله عليه وآله وسلم، قضى علي المفطر في نهار رمضان بكفارة الظهر. الحديث الصحيح. إلا أن الراوي قد خفي عليه تفصيل الحادثة. فإن كفارة الظهر لم تكن لافطاره متعمداً، وإنما كانت لأن المفطر كان مظاهراً. فقضى عليه الشارع الكريم بكفارة الظهر لظهاره لا لافطاره. ولم يوجد في كتب السنن مفطر قضى عليه بالكفارة ولم يكن مظاهراً. وقد صرحت كتب الأحاديث إن الشارع الكريم رفع الكفارة عن المظاهر الذي أظطر. وتصدق عليه بطعام ستين مسكيناً. ولم يقض علي امرأته بشيء. رفع الشارع الكريم الحكيم كفارة الظهر عن المظاهر، لأن ظهاره كان عن قصد حسن، ولم يكن منكراً من القول ولم يكن زوراً، ولم يكن ظلماً واعتداء علي امرأته. والمذاهب الأربعة وإن اتفقت في كفارة الافطار، إلا أن جماعة من كبار التابعين لم تقل بها.

والمسألة في نظري عجيبة وهي في نفسها مهمة. وقد آرتني مدة أسابيع لم أنم فيها لا ليلاً ولا نهاراً حتى كتبت رسالة طبعتها في عاشره هذا العصر (1910) وقلبي بها مطمئن إلي اليوم.

والذين لهم فقه وفهم في سنن الشارع الحكيم الكريم، صلي الله عليه وآله وسلم يعلمون أن النبي الكريم قد سن للعمل الواحد صوراً وهيئات كلها سنة جائزة شافية كافية. فالأخذ بها لا يكون اختلافاً والأخذ بها لا يكون تركاً وانكاراً للبقية.

والسنن سنن النبي الكريم وسيرة حياته وكل هديه مجموع مدون. وكل ما دونه الأئمة ثابت صحيح. أصل أول بين أصول أدلة الشرع. كتاب الله محفوظ كما نزل، والسنن مدونة باجتهاد أئمة السلف. والأئمة قد فرغت تمام الفراغ من بحث الأسانيد. وامتازت صحاح السنن من غيرها تمام الامتياز. وقد ورثنا كل إمام وكل حافظ حجة كل علومهم والأمة تفهم مقاصد الشرع ومقاصد الشارع كل الفهم علي كمالها وتمكن تمام التمکن من الاستنباط والاجتهاد والتشريع. نحن نتحري مقاصد الشرع. ونحن نتوحي صلاح المجتمع الإسلامي كما نتوحي صلاح الحياة المدنية. وهذا هو دين الأمة الوسط.

فإن كان لمؤمن أن يعتمد علي إمام الأئمة مالك في نقله وفي اجتهاده فإن الأمة عندها اليوم كل ما كان لمالك وكل ما كان عند أئمة السلف. والأمة عندها كل ما كان للصحابة والتابعين. وعندها القرآن الكريم. وعندها من علوم القرآن الكريم كل ما كان عند الأمة كافة في كل العصور قاطبة. حفظ الله كل نصوص دينه في كتابه وفي سنن نبيه بايدي كلية الأمة.

نحن بحمد الله نعرف مقادير الأئمة ونحترم أكثر من كل احد اقدارها. ونحن نقدر الأمة حق قدرها نزاعي السلف ولا نحتقر ولا نستصغر الخلف ولا نياس من روح الله ومن فضل الله ورحمته في الخلف ﴿ إِنَّهُ لَا يِيَّأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: 87] ومن يتقول غير ما أقوله وقلته في هذه الصفحات، فهو يحتقر الأمة، ويستصغر هذه الأمة الوسط، ويياس من روح الله ويقنط من رحمته.

نحن نحسن الظن بالأئمة والسلف، ثم لا نسيء الظن في أحد من الخلف. وليس معني احسان الظن أن نؤثر قول السلف علي الكتاب الكريم وعلي نصوص السنن الثابتة. ومن يتخذ قول أحد حجة فهو من الذين ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: 1 - 2]

وإذا فتح الله لعدل متأخر من عدول الخلف الذين اثني عليهم الشارع الحكيم بأجل ثناء، دليلاً من أدلة الشرع وثبت عند النظر صحته فانا لا نرد دليله بوهم إن السلف تركوه بعد أن عرفوه، فإن هذا ترك ونسخ لدليل الشرع بمجرد الوهم. مثل الأول كان نسخاً لدليل الكتاب ولاسنن بمجرد حسن الظن بالسلف والوهم والظن مردود لايعني من الحق شيئاً.

وليس من شأن المؤمن ولا من أدب المؤمن أن يتخذ مجرد حسن الظن وباطل الوهم سبيلاً إلي ارتيابه في كتاب الله أو في سنن نبيه صلى الله عليه وسلم.

والمؤمن غني أوفر الغني وأوفاه باكتابين:

1 - بكون الله وهو كتاب الله الأظهر الأكبر.

2 - وبكتاب الله وهو القرآن الكريم الأزهر الأنور.

المؤمن يستغني بهما عن كل شيء. وينبغي له ويجب عليه أن لا يستغني بأحد الكتابين عن الآخر. وصلاح الإنسان وسعادته أن يكون ذا حظ عظيم من كلا الكتابين: أن يأخذ الإنسان بأوفر حظوظه وأوفاهها من كون الله ومن كتابه الكريم. والمعلم في كتاب الله الأكبر هو عقل الإنسان واجتهاده. والمعلم في كتاب الله الأكرم الأنور هو نبيه الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين محمد النبي الأمين صلي الله عليه وعلي آله وصحبه أجمعين.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21 - 22] واللوح المحفوظ في

هذه الآية الكريمة هو كل الكون. كتبه الله بحكمته وقدرته فيه كل العلوم. والعلوم تفسير

الكتاب الكريم. والكون هو أم الكتاب: ﴿ وَإِنَّ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: 4] اتل الكتاب الكريم. وتعلم معانيه من اللوح المحفوظ وأم الكتاب.

تأمل سطور الكائنات. فإنها من الملائ الأعلي إليك رسائل ولا ينبغي لأمة مسلمة تتبغي ظهور الإسلام وعز الدنيا وسعادة الآخرة أن تفتن بأحد الكتابين عن الآخر.

﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأنبياء: 11] ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: 105]

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: 83].

في كتب أصول الفقه وكتب أصول الحديث اصطلاحات في اقسام الأحاديث. وأسهل كتاب وأنفعه في أصول الحديث كتاب النخبة والنزهة للإمام ابن حجر العسقلاني.

الإجماع (12)

كتب الأصول جعلت الأصل الثالث من الأصول الأربعة هي الإجماع.

والإجماع الذي لم يمكن أن يقع فيه اختلاف أهل العلم هو: اتفاق الأمة الكريمة في كل قرونها وكل عصورها علي تحمل القرآن الكريم والمصاحف المكرمة المرفوعة المطهرة. وعلي تحمل السنن الثابتة وعلي تحمل كل أركان الدين. وعلي نقلها وتبليغها علي التواتر بل فوق التواتر بدرجات.

وتحقق الإجماع بهذا المعني من خصائص الإسلام، ومن خصائص كتابه الكريم. لم يوجد لأمة من الأمم ولا لكتاب من الكتب في وقت من الأوقات.

والإجماع والاجتماع في الأمور التي يحتاج فيها إلي القوة ضروري لايقوم ولايتقوم أمر كبير الا باجتماع عدد من الناس، قليل أو كثير. أما الأفكار والآراء والأمور الغامضة فإن

الإجماع قد لا يأتي فيها بفائدة: لا في حل المسألة ولا في إيضاحها ولا في إزالة غموضها ولا في قبول قرار معقول لإمضائها. بل الأكثر الأغلب أن طبائع الناس في المذاكرة والمشاورة تولد التضامن والتعاند. فالإجماع يفسد المقصد. والمعاني إذا استخرجها من تابوتها عاطفة تمكنت في القلب أو استخرجها هوي حاكم علي العقيدة وعلي العقل فإن المعاني في أمثال هذه الصور أهوية لها اتجاهات متمايلة إلى جهات. لا تأتي بوفاق أصلاً ولا تجري رخاء إلى صواب. وإجماع أهل العلم في مثلها قد لا يمكن.

ولكتب الأصول ولكتب الكلام في إنكار إمكان الإجماع وفي تكذيب من يدعي وقوع الإجماع في الاجتهاديات ألسنة حديدة وكلمات شديدة. ولي في الإجماع فكر ونظر. ولا أوافق أهم ما يقوله أهل العالم في حكم الإجماع.

تقول كتب الأصول: الإجماع، من جهة كونه اتفاق فقهاء الأمة، دليل وحجة، مثل الكتاب ومثل السنة والإجماع إذا تحقق يكون قطعياً ويكون عمومياً وأبدياً. لا يجوز خلافه أصلاً. وهذا لا أوافق. لوجه سيأتي تقول كتب الأصول: اجتهاد الأمراء والقواد في الأمور القضائية والسياسية والحربية إذا استقر علي قرار فهو إجماع. دليل قطعي وحجة عمومية.

تقول كتب الأصول أن الإجماع لا يتحقق ولا يعتبر إلا إذا كان له سند ينبي عليه. وهذا القول اعتراف صريح في أن الإجماع ليس بدليل. ولو كان دليلاً لما احتاج في تحققه وفي كونه معتبراً إلى سند. ثم لو كان دليلاً لاستدل به ولاحتج به أهل العلم في المسائل النظرية والعقلية.

قال البعض إن الإجماع توقيف عن مستند. وقال البعض أن الإجماع توفيق من الله إلى اختيار الصواب. ينزل الله سكينته علي المؤمنين، ويسددهم روح القدس إلي الحق ويلزمهم كلمة التقوي وكلمة الصواب، إذا كانوا أحق بها وأهلها. وهو معني قول النبي الكريم لا تجتمع أمتي علي الضلالة. وهذا أحسن محامل الإجماع. وأعلي ما نرجو أن يكون أهل الإجماع علي:

﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُّقَاتِلِينَ وَأَنْ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبا: 46].

أرى رؤية بصيرة أن الإجماع معتبر، لا علي أنه دليل في المسائل النظرية. بل علي أنه قوة التنفيذ في المسائل العلمية الاجتماعية الوضعية وليس الإجماع بدليل علي ثبوت حكم من الأحكام، ولا علي صدقه وإنما الإجماع قوة لتنفيذ الحكم. فشان الإجماع علي عقيدتنا ارفع.

والإجماع في عقيدتنا مثل القضاء في نفوذه إلا أن القضاء جزئي في حادثة جزئية أما الإجماع فالغالب أنه لمصلحة عمومية، مثل القانون. والمصلحة العمومية لها حكم في زمنها. ولن تكون أبدية الإجماع اتفاق أهل الحل والعقد. والحل حل المسألة يكون بالعلم والعقل. والعقد عقد الأمر ووضع القرار وتنفيذه لا يكون إلا بالقوة. فلذلك لا يكون الإجماع برهاناً. بل الإجماع قوة فوق البرهان. ولهذا لا يكون خلاف إلا قل يمنع نفوذ الإجماع. ولا يكون العصمة شرطاً في الإجماع.

ولهذا لا يكون قرار الإجماع أبدياً عمومياً أصلاً. وأمة في قطر إذا اجتمعت علي أمر فحكم هذا الإجماع لا يتجاوز هذه الأمة، ولا يتجاوز حدود القطر. ويكون الحكم محدوداً في قطر هذه الأمة.

وفي كتب الأصول في الإجماع كلمات ينبغي علي الفقيه أن يكون علي بصيرة فيها وعلي احتياط.

وقد اهتدي البشر في القديم والحديث في مجالسه النيابية والمالية إلي العمل برأي الأكثرية وإيراد الأكثرية. وهو الإجماع الذي نبينه في كتب الفقه وأصوله ورأي الأكثرية وإرادتها وإن كان اقصر خط مستقيم في تنفيذ القرار وفي إمضائه، إلا أن الأكثرية لا تدل علي أن القرار حق نافع خادماً لصالح المجتمع ولمصلحة الجماعة.

وقول الواحد علي خلاف الكل أو قول الأقل علي خلاف الأكثر قد يكون حقاً وصواباً أنفع من قول الكل ومن قول الأكثر. ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ومن هاهنا نتبين فضل الفقيه إذ يقول: إن الإجماع لا يعتبر إلا إذا كان له سند يدل علي أن القرار حق فيه صلاح. فإن الكثرة عند اجتماعها تكون فوضي وغوغاء تنقلب كثرة: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَمِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146].

وفي الكتاب الكريم آية كريمة حكيمة موجزة معجزة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

الأمانة في الاستشارة والفائدة في المذاكرة بين اثنين لا في الكثرة والوصول إلى المقصد ونتاج التفكير في الانفراد، لا في الزحمة.

والبلاغة كل البلاغة في هذه الآية الكريمة في قول الله: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ والقيام لله، واخلاص العمل والقول والفكر لوجه الله لا يكون إلا لأحد من الملايين. منهم المكتشفون. ومنهم المجتهدون.

وقد تقدم في أول هذا الفصل المختصر الإجماع الذي لا يمكن أن يقع فيه اختلاف. وهو المعبر في الإسلام وهو الدليل. وهو فوق التواتر في الإفادة.

وقلت في أثناء هذا الفصل إن الإجماع توفيق إلهي إلى اختيار الصواب. يكون بنزول السكينة علي أهل الإجماع، يسددهم روح القدس ويلزمهم كلمة التقوي وكلمة الصواب. وهم أحق بما وهم أهلها. إذا قام كل لله مثني وفرادي.

وقد وقع مثل هذا الإجماع في الأمة الكريمة في حوادث وفي قضايا كثيرة. وهو دليل علي حسب وعد الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا. وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

أما اجتماع الأكثرية أو اتفاق الكل في تنفيذ أمر وفي إمضائه فهو قوة وليس بدليل. وتسميته واعتباره دليلاً مساحمة. ومثل الإجماع اتفاق الشيخين. الصديق رضي الله تعالي عنه والفاروق رضي الله تعالي عنه ﴿وَلِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ (سورة النور: 55)

فإن هذه الآية الكريمة في الصحابة الكرام زمن الصديق والفروق رضي الله تعالى عنهما والله قد مكن لهم دينهم وارتضاه لهم. فاتفق الشيخين علي شيء علي مآ من الصحابة الكرام دين ارتضاه الله حجة قطعية، لا ريب فيها.
واتفاق المذاهب الأربعة مثل الإجماع.

القياس (13)

الأصل الرابع من أصول الأدلة في شرع الإسلام هو القياس وقياس الفقهاء هو الضرب الأول من الشكل الأول عند المناطقة بفرق في الإصطلاح والعرف والاعتبار أساسي: وذلك إن قياس المناطقة مركب من مقدمته أو أكثر وقياس أهل الفقه بسيط غير مركب. والحد الأوسط، الذي يسميه المناطقة حدًا أوسط، هو القياس عند أهل الفقه، وهو البرهان. وتمثيل المناطقة يسميه الفقهاء قياس الشبه. وقياس الشبه عند أهل الفقه معتبر. واعتبره الشرع الكريم في مسائل مهمة. وقياس شبه يكون خزينة علم إن كان الفقيه علي بصيرة من أمره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: 75] والأدلة التي فصلها كتب المنطق وكتب الأصول، كلها معتبرة في فقه الإسلام. وجاءت في الشرع الحكيم. إلا القياس الاقتراحي علي أسلوبه اليوناني فلم يأت له نظير في الكتاب الكريم وقول الله جل جلاله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ سورة الأنفال: 23.

ظنت أهل التفسير إن الآية الكريمة من أول الشكل الأول واستشكلت النتيجة. ثم تكلفت في الجواب ما لم يخل من تحريف معني الآية.

والآية الكريمة فيها جملتان:

1 - أولاهما برهان التلازم: لو كان فيهم خير لاسمعهم الله. لم يوجد فيهم خير يستوجب الإسماع فلم يسمعهم.

2 - الثانية برهان التعاند: يوجد عندهم مانع في بيان الاهتداء فلم يسمعهم فتولوا وهو الالباء والاستكبار، والاعراض والآية الكريمة بنظمها العربي لايمكن أن تكون قياساً اقترانياً. لأن لو الامتناعية لا تكون في الاقترانيات.

والقياس في الأصل هو الوزن والذرع والتقدير بوحدة مصطلة معروفة ولكل شيء ميزان علي حسبه علي ما بينه الكتاب الكريم وبالقياس والوزن والذرع والكيل يظهر التفاوت والتساوي بين الأشياء.

وميزان الكتب الإلهية السماوية في الاحكام هو القياس ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (سورة الحديد: 25) فالقياس كان معهم وكان أصلاً أساسياً في كل الشرائع السابقة. ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ سورة الشوري، فالقياس هو أصل أساس الدين. أنزله الله علي نبيه: ﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: 49] هو أصل من أصول الدين. هو في الكتاب وفي السنة هو روح النصوص ومعقول النصوص. به يظهر فضل الله في الدين لم يكن لفقهاء أن يخالفه واختلاف أهل العلم في القياس عجيب مستبعد إلا أنه قد وقع.

وقد تقدم أن القياس هو الحد الأوسط به يوزن ويذرع حكم لدين. هو الحد الأوسط في الضرب الأول من الشكل الأول. والشكل الأول بديهي الانتاج والحد الأوسط هو المقياس والميزان في الأحكام لشرعية مثل سائر الموازين لسائر الأشياء.

والقياس يعتبره الشارع الحكيم في التوسيع وفي دفع الحرج في تكثير التكاليف ولا في التشديد والتضييق.

والفقيه إذا كان لطيف النظر ونافذ الفكر يهتدي إلي ثبوت الحكم لشبهه بين الأصل والفرع. يستدل بقياس الشبه (بالتمثيل المنطقي) إذا كان فيه توسيع لعباد الله وتحقق به دفع الحرج. ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: 78]

قياس الفقهاء (14)

له أربعة أركان:

- 1 - الأصل الثابت حكمه.
- 2 - الفرع المطلوب حكمه.
- 3 - الحكم المطلوب ثبوته.
- 4 - الشيء الجامع الذي قد كان سبباً لوجود الحكم في الأصل.

وبعد هذه الأربعة يحتاج القائل إلى إثبات أمور:

- 1 - وجود الحكم في الأصل.
- 2 - كون الحكم معللاً في الأصل.
- 3 - أن يعين علة الحكم في الأصل.
- 4 - أن يثبت وجود العلة في الفرع.
- 5 - عدم المعارض في الأصل.
- 6 - عدم المانع في الفرع.

وللقياس بعد ذلك شروط:

- 1 - كون الحكم في الأصل معقولاً يمكن للعقل تعليقه. فإن كان حكم الأصل تعبدياً ليس للعقل تعليقه فلا سبيل للقياس.

- 2 - أن يكون الحكم في الأصل شرعياً ثبت بالكتاب والسنة فإن كان حكم الأصل أصلياً ابتدائياً فثبوته في الفرع لا يحتاج إلى القياس وإن كان حكم الأصل اعتقادياً فثبوته في

الفرع لا يكون إلا بدليل العقل أو بنص الشارع. وإن كان حكم الأصل حسيًا فلا تعدية. أو كان حكم الأصل لغويًا فلا يثبت الوضع بالقياس.

مثاله: عصير العنب سمي خمراً لوجود الشدة المطرية فالنبيذ خمراً لوجود الشدة. لا يثبت الوضع ولا التسمية بالقياس.

3 - أن لا يكون حكم الأصل مختصاً بالأصل. فإن ثبت اختصاص حكم الأصل بالأصل بدليل. فلا يتعدى الحكم إلي محل آخر. لأن الأصل متفرد بحكمه. مثل قبول شهادة خزيمة وحده كان مختصاً به فلا يمكن قياس صحابي آخر علي خزيمة في قبول الشهادة. لقوله ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282] لئلا يكون القياس مبطلاً للنص القائم.

4 - أن لا يكون حكم الأصل منسوخاً في الأصل. وهذا ظاهر.

5 - أن لا يكون حكم الأصل متأخراً عن الفرع. فلا يجوز قياس الوضوء في حكم من الأحكام علي التيمم.

6 - أن لا يكون القياس موجباً لتغيير حكم ثبت في الفرع بالنص التمليك شرط في الكسوة. فقياس الطعام في التمليك للكسوة باطل. لأنه يوجب تغيير حكم ثبت بالنص في الطعام بقول الله: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ﴾ والإطعام يتأتى بمجرد الضيافة.

7 - أن لا يتغير الحكم لا في الأصل بأن يقي حكم النص في الأصل بعد التعليل علي حاله لو تغير لكان القياس مبطلاً للنص في الأصل. ولا في الفرع بزيادة وصف علي حكم الأصل، أو سقوط قيد كان في الأصل والا لكان القياس اثباتاً ابتداء لا بالتعدية من الأصل.

8 - أن لا يكون دليل الأوص شاملًا للفرع. للاستغناء عن تعب القياس.

9 - أن لا يكون حكم الفرع منصوصاً بنص آخر. فإن القياس يكون عبثاً أو باطلاً. كلامنا في القياس حجة مستقلة. وإلا فالنصوص الموافقة للقياس كثيرة.

10 - أن يكون الفرع نظيراً للأصل. والحكم إذا ثبت في الأصل علي سبيل التكريم فقياس الحرام علي هذا الحلال يكون باطلاً في حكمة الشرع أكل الناسي استثنى من وجوب القضاء فقياس الخطأ علي النسيان ليس بفقاه.

11 - أن يكون حكم الفرع بعد التعدية مساوياً لحكم الأصل. فإن تغير الحكم في الفرع بطل القياس فقياس ظهار اليهودي مثلاً علي ظهار المسلم باطل فإن ظهار المسلم ينتهي بالكفارة والحرمة في ظهار اليهودي مؤبدة فإن كفارة اليهودي لاتعتبر.

12 - أن لا يكون علة الحكم متأخرة من نفس الحكم.

فقول القائل أن عرق الكلب نجس مثل لعابه لاستقذاره غير صحيح. لأن ثبوت الاستقذار لا يكون إلا بعد ثبوت النجاسة.

13 - أن لا يكون تعدية الحكم إلي الفرع مناقضاً للحاجة العمومية وللمصلحة الضرورية. فإن عموم الحاجة أقوى من كل قياس. فإذا عارض القياس حاجة أو مصلحة بطل القياس.

فقياس ضمان الدرك علي الديون المعدومة في عدم جواز الكفالة يعارض الحاجة العمومية.

قانون التعليل والسببية (15)

قانون التعليل وقانون السببية عندنا بينة ابتدائية. وأهل الكلام وإن أطالوا الكلام في كون العلل علامات مقارنة غير مؤثرة وفي كونها مؤثرة لايزلزل هذه البينة وقانون السببية قد أبدعته الحكمة الإلهية لانتظام أمور العالم لكل شيء سبب، ولوجود كل شيء مصلحة وغاية لا عبث في الخلق. والعلل الشرعية والاجتماعية عندنا مثل العلل الطبيعية الكونية مؤثرة

توجب الحكم ويترتب علي الحكم غايته ترتباً قطعياً مثل ترتب المسبب علي سببه علة الحكم في نظرنا علامة للحكم بوضع الله، ومؤثرة بجعل الله.

علة الحكم تكون:

1 - أمراً حقيقياً مثل الاسكار في حرمة الخمر ومثل القرابة في سهام الميراث.

2 - تكون أمراً عرفياً مثل اعتبار الشرف والكفاءة في النكاح.

علية العلة تثبت:

1 - بحكم العقل مثل الصغر في ثبوت الولاية علي الصبي وعلي أمواله.

2 - بنص الشارع. ﴿فإنه رجس﴾ في التحريم "إنما جعل الاستيذان لأجل النظر".

3 - باثبات المناسبة بين الحكم والعلة.

الحكم الذي يثبت القائس يترتب عليه المقصد:

1 - قطعاً مثل ترتب الملك علي عقد البيع.

2 - ترتباً ظنياً: مثل ترتب عصمة الدم والحياة علي شرع القصاص. ﴿ولكم في

القصاص حياة﴾.

3 - يكون ترتبه مأمولاً. مثل ترتب المصلحة المطلوبة علي تحريم المسكرات.

4 - وقد يكون ترتب بعض المقاصد نادراً شرع النكاح لبقاء النسل ويجوز نكاح

العاقرة، وإن ندر وجود النسل منها.

والقياس يعتبره الشارع في السعة وفي دفع الحرج لا في تكثير التكاليف، ولا في التضييق

فلا قياس في الحدود والكفارات.

والقياس بالغاء الفارق بين الأصل والفرع يجعل الفرع أصلاً فيثبت الحكم بنفس دليل

الأصل فالقياس بالغاء الفارق أقوى من القياس بابداء الجامع.

الاستقراء (16)

أحق طرق النظر وأصدقها نتائج حقة وأعمها وأوسعها وأغناها نفعًا وبركة في العلوم كلها هو الاستقراء.

والاستقراء:

1 - أن يقرأن الناظر الباحث الحقائق الكائنة من جمال وجه الطبيعة ومن صحائف كتاب الكائنات .

2 - أن يتتبع الناظر حقائق الكون من منابعها الأصلية الصافية. وهو المراد من قولهم: إن الاستقراء هو انتقال الناظر من جزئيات تتبعها إلى كل هو استخرجه منها.
(الاستقراء من قرأ ومن قري)

والاستقراء يجري في الشرعيات مثل جريانه في الكونيات وفي العقليات. والحكم الاختياري الوضعي الذي قد وضعه الشارع الحكيم العليم مثل الأحكام العقلية الضرورية ومثل الأمور الكونية في التحقق والثبوت والإثبات.

وعمومات القرآن الكريم والشارع الحكيم في عقيدتنا قطعية مثل قطيعات سائر العلوم. وعمومات الكتاب الكريم:

1 - قد تكون من صيغ العموم والاستغراق.

2 - وقد تكون باستقراء مواقع المعني حتي يحصل بالاستقراء في عقل المستقري أمر كلي عام يجري في الحكم و في الاستدلال مجري العموم المستغرق المستفاد من صيغ العموم. وقد يكون أجلي من صيغ العموم في الإفادة، مثل التواتر المعنوي لايتطرق إليه وهم التخصيص.

والقرآن الكريم نزل بجوامع البيان: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: 89] والنبي الكريم بعث بجوامع الكلم اختصر له البيان والكلام اختصارًا علي وجه

أبلغ ما يكون وعلي وجه أقرب ما يمكن من التحصيل ورأس هذه الجوامع في التعبير هو العمومات بالوضع أو بالاستقراء.

وكثير من كليات الشرع وكثير من قواعد الشرع تبين وثبت باستقراء أهل الاجتهاد. كتب الأصول قد عدت الاستقراء من فروع الأدلة. وأراه من أحق أصول طريق النظر ومن أصدقها نتيجة. نتائجه لا تكاد تكون خطأ نعم قد تكون أن كليتها متنقضة في بعض جزئياتها.

فروع الأدلة (17)

كتب الأصول فصلت أدلة فرعية بعد الأصول الأربعة:

6 - الاستصحاب: ثبوت حكم أولاً دليل علي بقائه في الحال. وثبوت حكم في الحال دليل علي ثبوته في المستقبل.

7 - البراءة الأصلية: إن لم نتيقن بوجود دليل علي حكم من الأحكام فالبراءة الأصلية العقلية الطبيعية تكون دليلاً علي عدم الحكم عدم الدليل وإن لم يكن دليلاً علي عدم في الكونيات إلا أن عدم الدليل الشرعي دليل ضروري علي عدم الحكم الشرعي بالضرورة.

8 - الاستحسان: هو الأخذ بالمصلحة الجزئية علي خلاف الأصل الكلي.

وهو المراد في قول الفقيه الحنفي: أن الاستحسان قياس خفي يقابل القياس الجلي. من أعجب شواهد الاستحسان قصة صاحب موسي في حرقه السفينة وفي قتله النفس الزكية، وفي إقامة الجدار بلا أجر وقد كانا في أشد حاجة إلي القوت **آنذاك** ﴿ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا ﴾ [الكهف: 77] وهذه القصة العجيبة أحسن قصة في إرشاد أهل العلم. (سورة الكهف (61: 82) بل كل قصص هذه السورة قصص حكيمة جليلة في إفادتها.

فالمصلحة القطعية كانت معتبرة في الشرائع السابقة وهي معتبرة في شرع الإسلام، خالفت أصلاً من الأصول الكلية أو لم تخالف. وليس استحسان الفقيه عملاً بالهوي وبالرأي، وإنما هو اقتداء بسنة الشارع في اعتبار المصلحة.

9 - سد الذريعة.

إذا كان شيء ذريعة لمفسدة أو جعل شيء ذريعة لمفسدة يمنع ذلك الشيء منعاً باتاً. فإن منع المفسدة قبل وقوعها ورفع المفسدة بعد وقوعها هو غاية كل شريعة فالمصلحة دليل الثبوت والمفسدة دليل المنع.

10 - المصلحة دليل في الأحكام العادية الاجتماعية. والحكم أن أتى بمصلحة للمجتمع فالحكم باقتضاء المصلحة ثابت مشروع. والشرائع السماوية كلها علي المصالح الاجتماعية.

وأحسن كتاب في الاستحسان والمصالح المرسله هو كتاب المستصفي للإمام الغزالي وكتاب الموافقات للإمام الشاطبي.

ويعتبر في المصالح غلبتها لا خلوصها. إذ ليس في الكون مصلحة خالصة. والمصلحة وإن لم يمكن خلوصها تماماً من كل مفسدة يعتبر فيها النصفة: أن لا تتعدي مفسدتها لسائر الناس. والمصلحة ميزان الشرع الإسلامي. والمصالح تسعة اعشار الشرع الإسلامي.

11 - العوائد المعروفة تعتبر علي أنها سنن اجتماعية للأمم. والعوائد إذا كانت ضرورية بحكم الطبيعة أو كانت حاجية بحكم لاحتياج المجتمع فهي سنن اجتماعية يقرها شرع الإسلام. والإسلام قد أقر كثيراً من عوائد العرب إذ لم تكن فيها مفسدة: وقول الله جل جلاله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: 26] عبارة نص في أن السنن الاجتماعية، إذا لم يكن فيها مفسدة اجتماعية، هداية لنا يريد الله أن يهدينا سنن الذين من قبلنا.

وعلي ضياء هذه الآية الكريمة لنا أن نقول:

12 - التجارب الاجتماعية من أصول الأدلة في ثبوت الأحكام الشرعية وقد كان النبي الكريم الشارع العظيم قد هم أن ينهي عن الغيلة ثم انتهى عن همه النبوي بحال الروم والفرس. اعتمد علي التجربة فترك همه النبوي. وهمه كان اهتداء في مصلحة مهمة.

13 - شهادة التاريخ دليل لاثبات الأحكام. إذا تحقق شهادة التاريخ لصالح شيء يكونه نافعًا للمجتمع أو لفساد شيء يكونه ضارًا في المجتمع، فعلي وفاق هذه الشهادة. يكون حكم الشرع في إقرار هذا الشيء أو في رفعه.

14 - الاحتياج أصل عظيم من أصول كل الشرائع وأصل عظيم في شرع الإسلام ثبت ذلك ثبوتًا قطعيًا باستقراء موارد النصوص ومواقع معانيها ليس في شرع الإسلام وفي دينه من حرج. وليس في شرع الإسلام شيء يوقع الإنسان في ضرورة أو في ضيق. والحاجة كما قال المحق المصادق، أم الاختراع. والاختراع هداية من الله كونية. فكذلك تكون الحاجة أم الحكم. والحكم هداية من الله شرعية والمقاصد في شرع الإسلام:

1 - ضروري.

2 - حاجي.

3 - كمالي.

ولا يمكن أن يوجد حاجة يحتاج إليها الإنسان ويمنعها شرع الإسلام.

15 - هداية العقل يعتبرها الكتاب الكريم في شرعه كما يعتمد الشارع علي العقل في خطابه.

هنا أصل عظيم من أصول الشرع الحكيم. والعقل موهبة إلهية عليّة. بني عليها وعلي الأمانة التي عرضها الله علي السماوات والأرض والجبال الشريعة الإسلامية.

وينبغي لك مؤمن أن يتنبه أنه ليس كل فكر وكل وهم رسا في ذهن الإنسان بعقل. وليس كل ميل وكل هوي تمكن في صدر الإنسان بوجود أن يجده الإنسان في قلبه آية من الله وبينة من ربه.

والعقل بصيرة في الإنسان لايري إلا الحق. مثل البصر لايري إلا النور. ولم يجيء في الكتاب الكريم ذم العقل أصلاً. وإنما جاء نفي العقل. ومعناه لو كان عقل لادرك الحق. لأن العقل لايقبل الباطل. كما أن الماء لايحرق. وأعظم شواهد الله في خلقه هو العقل أولاً والحس ثانياً. والحس يدرك حقائق واقعة حسية، عند تحقق شروط الاحساس من الضوء والوضع وعدم الحجاب. ونحن لا نرتاب في الإحساس. شأن العقل والبصيرة مع الأدلة ومع الحقائق مثل شأن البصر مع شروطه من الضوء والوضع.

والإنسان يدرك نفسه ويدرك أفعاله. للأفعال في أنفسها حقائق متقررة: حسنها حسن، وقبيحها قبيح. والفعل في نفسه حسن وله في نفسه عند ميزان العقل رجحان لا بالأمر فقط، ولامن اختيار الفاعل فقط. والتحسين عقلي والتقيح عقلي والعقل يدرك حسن الحسن ويدرك قبح القبيح بالضرورة أو بالنظر والشرع الحكيم معرف هاد لا مثبت.

نحن نتبع ملة إبراهيم، ونقتدي بهداه. ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: 130] فنسند كل الأحكام إلى الشرع وإلى أمر الله والعقل يطيع الأمر، كما أن الطبيعة تطيع الإرادة ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَيْتُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: 74] ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: 124].

الكلمات هي تعاليم الله وهداياته. فأتمهن إبراهيم من غير اعتراض، ودون بحث عن مصلحتها وحكمته فيها ودون توقف. فنحن في امثالنا وإطاعتنا لأمر الله علي ملة إبراهيم: نطيع أمر الله لجرد كونه أمر الله. وليس من أدبنا ساعة الامتثال أن نبحت عن مصلحة الأمر وحكمته.

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾ سورة النساء (66).
ونحن إنشاء الله من القليل في كلتا الآيتين (34: 13) (4: 66).

العقل يدرك الحق ويدرك أفعاله ويدرك حسن أفعاله الحسنة ويدرك قبح أفعاله السيئة العقل له الإدراك وليس له حكم أصلاً لا بالإيجاب ولا بالنهي. ﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ فلا حكم ولا إنذار ولا تكليف للعقل. وليس للعقل أن يكلف أحداً بشيء.

وأهدي المذاهب الكلامية والفقهية أدباً في هذه المسألة هم الأشاعرة: يسندون كل الأحكام ساعة الامتثال والإطاعة إلى الشرع الحكيم وإلى أمر الله ولا ينكرون المصلحة والحكمة في شرع الله. ولا يحكمون العقل في الحكم والتكليف والإيجاب والنهي. ولا ينكرون أن العقل له الإدراك ويوقنون حق الإيقان أن الشرع أحكم وأعلم لا يامر بقبیح ولا يخالف أبداً مصلحة وحكمة. ويقولون أن أمر الله يوجب ويقتضي المصلحة ولا ينكرون إلا التعليل ويتأدبون من أن يقولوا إن أمر الله معلل بالمصلحة.

وهذا أدب العبد في جنب الله. وحكم الله متعال مثل تعالي الله عن أن يتوقف إلى شيء أو يعلله به ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ للعقل وعلي العقل أن يدرك كل شيء وليس له أن يحكم علي آخر بشيء.

وهذا الأدب هو الذي يناسب كرامة الإنسان. إذكرمه الله بكمال عقله وباستقلال قدرته، وباطلاق حرته في إرادته ليس عليه إلا ان يطيع أمر الله.

من فضل العقل وكماله أن يدرك الحق ويعلم الصلاح من الفساد ويميز الخبيث من الطيب، ويعرف الحسن من القبیح. ومن أدب العقل أن يطيع أمر الحكيم، ويتابع الشرع والقانون. والشرع والقانون يتوافقان. والعقل المطلق من وهم ومن هوي إذا صفا يكون مرآة ينعكس فيها الحق آية من الله وبينة من ربه.

فما اطمأن إليه العقل وما سكن إليه وجدان القلب السليم هو الدين. والأدب المعقول هو صحيح الأدب المنقول. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129] ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2]

ذبول لفصول السيرة (18)

القرآن العظيم ذكر كثيراً من أعضاء بدن النبي الحكيم بعظيم التعظيم.

1 - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (10: 42) معنى هذه الآية الكريمة إن لسان النبي الكريم كان برهان رسالته، فلو لم يكن المستمع أصم، وكان يعقل لآمن فوراً بتأثير لسانه المبارك.

2 - ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (10: 43) معنى هذه الآية الكريمة: إن وجه النبي الجميل المليح برهان رسالته، فالناظر إليه لو لم يكن أعمى لاهتدي بمجرد رؤية وجه النبي الكريم.

3 - ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] جعل يد النبي الكريم يد الله في هاتين الآيتين وهذا ثناء وتعظيم لم يكن لأحد.

4 - ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۗ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: 144] ذكر وجه النبي الكريم وجعل تقبله في السماء سبب سعي الله في رضا نبيه.

5 - ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17] ذكر عينيه وذكر ثابت أدب البصر إذ نظر إلي وجه الله.

6 - ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [التوبة: 61] عصم أذن نبيه من أن يسمع شراً لأحد.

7 - ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ (19: 97) (44: 57) القرآن الكريم يحفظه الأمة: صغيرها وكبيرها، بصيرها وضريرها واليسير كان ببركة لسان النبي الكريم.

8 - ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ (26: 194) (2: 97) ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (59: 21) كان قلب النبي الكريم قويًا لم يتصدع وقد تحمل كل القرآن الكريم وكان رأسياً أرسى من الجبال.

9 - ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ذكر شرع صدره وسعته في حفظ القرآن الكريم وكل علومه، وذكر قوة ظهره في تحمل كل اعباء الرسالة. وذكر إن الله رفع ذكره ببركة سعة صدره وقوة ظهره.

10 - ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] الفواد محل العلوم من القلب. وثبات الفواد بثبيت الله جل جلاله فضيلة جليلة.

11 - ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 215] والجناح جانب الإنسان من اليمين واليسار. كان وقوراً ساكناً عظيم التواضع. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: 216] كان يبرأ من عمل العامل، وما كان يواخذ العامل.

الأمة الكريمة ورثت نبيها خاتم النبيين

فقامت مقامه في كل وظائفه وحقوقه

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (35: 32) أورش الله كتابه بعد نبيه أمته، بعد أن بلغت رشدتها وأشدّها واستوت باصطفاء الله وبتعليم نبيه وتزكيته حتى صارت الأمة المرحومة المعصومة الكريمة أهلاً للرسالة وأحق بها. ويدها كتاب الله وسنن نبيه العظيم. فحملت الأمة الرسالة الإسلامية إلى الأمم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾

وَأَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿ (43: 60). فقد شاء وقد جعل.
والملائكة هم رسل الله إلي أفراد من البشر (3: 39) (3: 42) (3: 45) ولم يجعل الله
ملكا رسولا إلي قوم وإلي أمة من البشر.

وذلك إن الله جل جلاله لم يرسل نبيه صاحب القرآن إلا رحمة للعلمين. فصاحب
القرآن الكريم رحمة لأمته. فكل كمال له من الله وكل فضل عليه من الله قد ورثته أمته
وانصبغت به قلوب أمته وعقول أمته.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (2: 137) به أمته
في مدة حياته النبوية بين أمته. والصبغ تطوير وانقلاب معجل دفعي.

والأمة الكريمة شريك لنبيها في كل كمالاته في كل فصائله في كل وظائفه في كل
حقوقه. كل ما أنعم الله به علي نبيه من فضل ونعمته وكل ما نزل من عرش الله العظيم إلي
نبيه الكريم فكله بعده لأمته والأمة شريك لنبيها في كل كمال كان له في حياته، ثم ورثته بعد
مئاته وكل فضل وكل نعمة ذكرها القرآن العظيم لنبيه فقد ذكرها لأمته.

1 - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ خطاب للنبي ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ﴾ خطاب لأمته وأمته أخرجت للناس هم الأنبياء فأئمة الأمة خير من الأنبياء.

2 - إتما النعمة: ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ خطاب للنبي ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾
خطاب لأمته إلي يوم القيامة وأول داخل فيه أول الأمة.

3 - النصر في كل الأمور: ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ خطاب للنبي ﴿ وكان حقاً علينا
نصر المؤمنين ﴾ خاطب المؤمنين، وأوجب النصر علي نفسه بقسم مؤكد.

4 - ﴿ إنا فتحنا عليك فتحاً مبيناً ﴾ خطاب للنبي ﴿ وأتاهم فتحاً قريباً ﴾ خطاب
لأهل الإيمان. وفتح المؤمنين كان أوسع وأقوي من فتح النبي صلى الله عليه وسلم

5 - الصلاة من الله ومن الملائكة ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ وصلاة الله وصلاة ملائكته علي النبي وعلي أمته أرفع بكثير من سجود الملائكة لآدم عليه السلام في شأن التشريف والتكريم. كل الأمة في كل أحوالها يصلي ويسلم علي النبي وعلي أمته. كل الأمة في كل صلاتها تسلم علي النبي ثم تسلم علي أمته فالأمة في الشرف وفي الكرامة مثل نبيها.

6 - التأيد: ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ ﴿وأيدهم بروح منه﴾.

7 - الاصطفاء: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ ﴿ثم أورتنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ ذكر الايراث والميراث تأخذه الأحياء بعد الأموات والكتاب محفوظ إلي الأبد فالأمة أحياء إلي الأبد. واصطفي الأمة بنون العظمة بنفسه لنفسه. ولم يكل الاصطفاء إلي غيره. وسائر الأمم لم تكن مصطفاة فأنحرفت عن كتابها. والأمة ببركة الاصطفاء لا تنحرف وأضاف العباد إلي نون العظمة لقطع إمكان الانحراف والضلال بالاغواء أو غيره. ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ ذكر الاصطفاء بعد قوله: ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ والاصطفاء بعد العلم بالاهلية لازوال له فلا يمكن الضلال في الامة ثم ذكر كل درجات افراد الأمة:

1 - الظالم لنفسه.

2 - المقتصد.

3 - السابق بالخيرات.

وذكر أن كل هذه الدرجات باذن الله. وقال إن وجود كل هذه الدرجات في الأمة هو الفضل الكبير، ثم ذكر واسع كرمه فقال: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ من غير مانع وبكمال الاهلية كل هذه الدرجات بمنزلة واحد.

وهل يوجد فرق بين قولنا: 1 - ﴿ظالم لنفسه﴾ وبين قولنا 2 - ظالم نفسه؟ فإن قلنا أن لا فرق بين التركيبين، فتقدم من ظلم نفسه لأن اقتراف الذنوب أول درجات العبد، ثم

العناية إلى الله. والسبق بالخيرات آخرها ولأن السابق يتكل علي طاعته، والمقتصد يتكل علي حسن ظنه بربه. والظالم لا يتكل الا علي رحمة الله فقدم الكتاب الكريم الظالم ليعلم سعة رحمته وهذا هو الفضل الكبير.

وإن كان الظالم هو الذي يسعي يتعب نفسه في طلب المعالي والفضائل فالتقديم علي أصله.

8 - النبي خاتم الأنبياء. وأمته خلائف في الأرض لكل الأمم علي وجه الأرض فأمة الإسلام تخلف كل الأمم في كل الأمور.

9 - ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (2: 117) جمع الأمة ونبيها في توبة الله عليها وعليه. ثم تفضل بالتوبة علي من زاغ من الأمة.

10 - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (2: 186) كانت كل أمة تفرع إلي نبيها وهذه الأمة تفرع إلي الله. وهذا فصل الأمة علي أنبياء الأمم وضمن الله في هذه الفرع الرشد والاهتداء.

11 - ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (48: 186) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4]

12 - شرح الصدر: ﴿ألم نشرع لك صدرك﴾ ﴿أفمن شرح الله صدره﴾

13 - التيسير: ﴿إنما يسرناه بلسانك﴾ ﴿يريد الله بكم اليسر﴾

14 - غفران الذنوب كلها: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2] ﴿إن الله يغفر الذنوب﴾ ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾.

ومغفرة الذنوب للنبي كانت بالفتح والنصر فنحن نأمل إن الله يغفر كل ما تقدم وكل ما تأخر من ذنوب الأمة بفتوحاتها وجليل انتصاراتها في سبيل الدين والتمدن والعلوم والمعارف.

15 - في الإيمان: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ كُلَّ آمَنَ (النبي وأمته) بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. فالنبي كفر من أمته، ولك فرد كنيته في الإيمان بالله.

16 - في الجهاد لإقامة دين الله: ﴿ لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا ﴾ [التوبة: 88] فاستقامة الأمة مثل استقامة نبيها في إقامة الدين. فالأمة في إقامة الدين معصومة بإيجاب العطف. والعطف علي الضميرين من غير فصل فيه إفادة معجزة تفيد شدة ارتباط الأمة بنبيها في الإستقامة وتوجه خطاب الله وأمره.

ثم قول الله ﴿ومن تاب معك ﴾ يتم ويتناول كل الأمة إلى يوم القيامة حيث جعل المعية في مجرد التوبة، سواء عاصره أولاً، وسواء اشترك معه في عمل الاعمال، وكل هذا من واسع كرم الله، ومن عظيم بركة انتساب الأمة إلى نبي الله.

وكان النبي الكريم يقول بلسان الشكر "شيبني هود وأخواتها" وأحوات سورة هود هي عبس والنازعات والمرسلات يشير النبي الكريم بذلك إشارة نبوية علي أن الأمة ستستقيم استقامة النبي، وروح النبوة ستبقي فيها فكأن النبي حي ب حياة الأمة أشيب بشبابها.

18 - في الإيمان من كل حزبي: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ [التحریم: 8] أمن الأمة كما قد أمن نبيه من كل حزبي وسوء إلى يوم القيامة.

19 - في وعيد من يخالف: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ ﴾ [النساء: 115] فمخالفة الأمة مثل مخالفة الرسول. والوعيد في مخالفة الرسول علي المشاققة. أما في مخالفة الأمة فالوعيد علي مجرد عدم الاتباع. ومثل هذا البيان بلاغة معجزة في بيان رجحان كفة الأمة.

20 - في كل فضيلة وكمال تستوجبها الرسالة: ﴿محمد رسول الله والذين معه ﴾ عطف في المتبداً. فالذين معه رسل الله إلي الأمم فكل فضيلة تستوجبها الرسالة تكون في الأمة. وهذا الوجه يؤيد قراءة أشداء رحماء بالنصب علي الحالية.

ومن بيان هذه الآية الكريمة أخذ النبي الكريم قوله: علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل. ويؤكد تأكيده لا يذر ذرة ريبة قول الله الله جل جلاله. ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ لان القسم لا يكون الا للمستقبل فالرسل في الآية هي الأمة الإسلامية إلى الامم. ولم يكن مع النبي نبي في زمنه ولن يكون بعده فالرسالة في الأمة الإسلامية باقية إلى يوم القيامة، ويدها كتاب الله الكريم. ويكون في هذا تحقيق قول الله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: 28]

وقول الله جل جلاله في عيسى. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (43: 59) إذا تلونا بعده قول الله ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ (43: 60) نفهم إن الآية عرضت للأمة المحمدية الرسالة إلى الأمم. فالأمة المحمدية خلف لنبينا محمد في الرسالة إلى الأمم.

21 - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (2: 143)

اشترك الأمة الكريمة مع نبيها في الشهادة علي الأمم فإن النبي الكريم مثل أعلي في أدب الحياة للأمة. ومن وظائف الأمة أن تكون في أدب الحياة مثلا أعلي لسائر الأمم. وعلي الأمة أن تستعد لمثل هذا الشرف الأعلي حتي تكون قدوة ومثلا لسائر الأمم في كل الأمور والشهادة في هذه الآية الكريمة غير الشهادة في قول الله ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (4: 41) وللشيعة في هاتين الآيتين الكريمتين كلمات ثقيلة لاشك أنها موضوعة علي لسان الصادق والباقر. في الوافي. (2: 120) (2: 180).

22 - كل ما كان ينزل إلى النبي الكريم في حياته ينزل إلى أمته في حياتها إلى يوم القيامة. وهذا نص سورة القدر. لأن تنزل الملائكة والروح بإذن الله ليلة القدر في كل سنة لا يكون إلا للأمة: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ وهذه السورة محكمة ظاهرة نص علي أن الأمة شريك لنبينا في أحص خصائص النبوة، وأن رسالة الأمة

متصلة تمام الاتصال برسالة نبيها. لا فصل ولا انقطاع في الرسالة. ومن أعجب ما نراه في ترتيب السور: إن سورة رسالة الأمة متصلة بسورة رسالة النبي من غير فصل.

23 - الأمة شريك لنبيها في الظهور والغلبة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح: 28] ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَحْلِفَنَّهُمْ﴾

أضاف الدين إلى الأمة، وأكد التمكين بالقسم فدل على أن دين الأمة وسياسة الخلافة الراشدة بعد النبي هو الذي ارتضاه الله لهم.

24 - في اكمال اعطاء والإحسان حتى يرضي: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

25 - في الدعوة والتبليغ علي بصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]

1 - هَذِهِ سَبِيلِي وَسَبِيلِ مَنْ اتَّبَعَنِي.

2 - أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ وَأَنَا وَيدعو من اتبعني.

3 - علي بصيرة أنا وعلي بصيرة من اتبعني.

﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44] ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187].

26 - ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128] أشهر آية وأشرف آية. خطاب لكل الناس في كل العصور. ولا يمكن بقاؤه إلا إذا كان الأمة خلقاً للرسول صلي الله عليه وآله وسلم.

27 - في التثبيت ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32] ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدْسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النحل: 102]

28 - في السلام من الله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: 59] ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 54]

29 - للرسول كرامة. ولأمته مثلها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [الفرقان: 16] كرامة لأحد لها ولا نهاية ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: 31]

30 - الكتاب الذي قال الله فيه ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44] قال في شرف الأمة: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10]

31 - ذكر القرآن الكريم في الأنبياء السابقين: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 87] وذكر فينا ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: 78] جعلنا بالاجتباء والاصطفاء في درجة الأنبياء ولم يذكر في الأمم إلا التفضيل، والاصطفاء كلي يجمع الفضائل. فضل الأمم قبل وجود الأمة الإسلامية. واصطفائها بعد وجودهم. والاختيار علي الموجود أفضل من التفضيل علي المعدوم المفقود.

32 - ذكر الله جل جلاله في كتابه أمة محمد بما لم يذكر به أحداً من الأنبياء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ۗ أَلَّا تَخَافُوا ۚ ۱ وَلَا تَحْزَنُوا ۚ ۳ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ۴ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ ۵ وَفِي الْآخِرَةِ ۗ ۶ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ۗ ۷ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * ۸ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]

آيات جليلة لم تنزل في كتاب من الكتب ولا في نبي من الأنبياء وكان النبي الكريم كلما تلاها يقول: "هم أمتي ورب الكعبة".

تنزل الملائكة عدد قطر الأمطار بهذه البشائر الثمان العظيمة فضل من الله علي نبيه عظيم وفصيحة لم تكن لنبي من الأنبياء ولا لأمة من الأمم. بل خص الله بها أمة نبيه محمد والذين معه هم أول من دخل في هذه الآيات.

33 - الأمة تشارك النبي الكريم في التبليغ بنص القرآن العظيم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1] فالقرآن نزل علي عبد الله وعلي عباده ليكون القرآن نذيرا في لسان عباد الله وهم الأمة في كل العصور.

فإن سند القرآن الكريم سند حي:

- 1 - تحمله جبريل من الله.
- 2 - تحمله النبي الكريم من الله ومن جبريل.
- 3 - تحمله الأمة المعصومة من نبيها المعصوم: كافة من كافة إلي يوم الوقت المعلوم.
- 4 - ثم كل عصر بعد تحمله يحمله إلي الأمم إلي العالمين.

فيكون القرآن الكريم في كل عصر بل في كل يوم بل في كل آن نذيرا للعالمين في لسان الأمة.

وقول النبي الكريم: يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله. يدخل فيه القرآن الكريم دخولا أوليا. لقول الله ﴿وَلَتِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: 145] الحمل غير التحمل فإن التحمل هو التلقي من غيرك. والحمل هو الأداء إلي غيرك والتبليغ إليه.

وشرف التبليغ أشرف وظيفة علي كل عصر، وعلي كل الأمة، بل وعلي كل فرد من الأمة، لو قامت به. ولو رجعنا إلي أنفسنا اليوم لأخذنا ها مواخذا

وَكَمْ لَوْ وَلَيْتِ تُورِثُ الْقَلْبَ أَنْصَلًا

34 - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ جعل إطاعة أولي الأمر مثل إطاعة الله وإطاعة الرسول إطاعة الرسول إطاعة شرعه. فأولوا الأمر لهم حق التشريع.

35 - ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39 - 40]
 ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]
 فالعصمة من الخطأ ضمنها الله للأمة عند وجود الإخلاص.

36 - السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلي عباد الله الصالحين. الأمة في فضيلة السلام شريك للأنبياء وشريك لنبينا الأكرم العظيم. ويدخل في السلام سلامة الأمة وعصمتها من الخطأ في أمور دينها.

37 - الصلاة والسلام والمباركة في قعدات كل صلاة مكتوبة ونافلة إن كانت مقبول فامة محمد صاحب القرآن الكريم لها حق التشريع ولها شرف العصمة في قرارها كأنياء آل إبراهيم. والا لكان دعاء النبي الكريم في كل حياته ودعاء الأمة في كل عصورها عبثًا وضلالًا مثل قول الكتاب الكريم. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: 50]

الأمة في عقيدتي معصومة عصمة نبينا وهذه هي اليوم دعواي وبها فقط لا يغيرها يمكن بقاء الإسلام علي وجه الأرض عزيزًا ظاهرًا إلى يوم القيامة والأمة إن لم يكن لها عقل يعصمها وإيمان يهديها وقوة **تعينها** فلا وجود للأمة ولا لدين الإسلام.

وأن أنتظر ما أنتظر من الله ومن كلية الأمة والأمة العزيزة المهديية هي التي تولد إمامها المهدي لا أن الإمام المهدي ينجي الأمة من فسادها وذلتها وزوالها. فإن هذه أمنية باطلة تناقض سنة الله، وتناقض ارشاد الكتاب الحكيم.

كتبت كتاب السنة بكامل الإخلاص لوجه الله ولم أكتبها بقدره علمية وإنما كتبتها برغبة اندفاعًا ليثبت عند أبناء الأمة كون سنة صاحب القرآن أصلاً أولياً بين أصول أدلة شرع الإسلام. ثم أجملت كل أدلة الشرع إجمالاً فيه غناء.

وأحببت أن أكتب سير النبي الأمين من كتاب الله المبين وزدت علي سيرة النبي الكريم ما للأمة في القرآن العظيم. وكان ذلك مني كتابة تجربة لاستعد علي أزيد منها. أو ليتقدم من هو ارغب وأقدر مني إلي أحسن منها.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله. دعواناه فيها سبحانه
اللهم وتحتنا فيها سلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

أول ربيع الأول من سنة 1364 (14 : 2 : 1945)

موس ابن فاطمه

ذيل علي ما للأمة في القرآن العظيم

أصدق قول قاله قائل في الله جل جلاله قول من قال: إن الله نظر في قلوب العباد
فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه ثم نظر في قلوب الأمم بعد قلب محمد
فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه الكريم فالصحابه خير العباد وخير
الأمم كلهم أجمعين وعباده في قوله ﴿وسلام علي عباده الذين اصطفى﴾ هم أصحاب محمد
صلي الله عليه وآله وسلم.

آخر سورة من القرآن الكريم نزلت سورة النصر العزيز والفتح المبين وآخر آية من
الكتاب الكريم نزلت كانت هي آية إكمال الدين، وإتمام نعم الله علي المؤمنين وآية رضي الله
الإسلام ديناً للعالمين. وأكد وعد موكد بالقسم الإلهي كان هو وعد الاستخلاف كما
استخلف الذين من قبلهم، ووعد التمكين الذي لم يكن لأحد من قبلهم. وأجل فرح حصل
للنبي الكريم صلي الله عليه وسلم في آخر حياته كان آخر فرحة فرحها في آخر ساعة من
حياته إذ رفع ستار حجرة أم المؤمنين عائشة، فرأي جميع أصحابه يصلون صلاة جماعة ألف
الله بين قلوبها خلف خليفته الذي أقامه إماماً لأمته في دينها ودنياها. وكانت هذه الصلاة

هي قرة عينيه ورضي قلبه ونور فؤاده. حتى طمأن الله بها قلبه فكانت آخر كلمة صدرت من لسان سيد المرسلين كلمات ورضا وكلمات اعتماد علي استقامة أمته بعد مماته كما استقام هو في حياته فكان هو والصحابة الكريمة أول من نزل فيهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت: 30] وآخر كلمة سمعتها السيدة عائشة يقول: الرفيق الأعلى. وكتاب الله في حفظ الله بيد مولاة.

هذا هو الذي وقع وهذا هو الحق الذي كان ينبغي أن يقع فكل قول يخالف حرف منه حرفاً من هذا القول هدر باطل.

ثبت أن النبي الكريم صلي الله عليه وآله وسلم كان يقول: خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. والمعني أن خير القرون الماضية قرني ثم الذين يلونهم هم أيضاً خير من القرون الماضية. فالقرون الثلاثة من قرون الأمة هم خير من كل القرون السابقة قبل الإسلام. وعلي هذا المعني فالحديث لا يكون فيه تفاضل قرون هذه الأمة إذ قد ثبت: أمتي كالمطر لا يدري أولها خير أم آخرها.

وإن كان معني الحديث خير القرون من هذه الأمة قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فمعني الحديث أن القرن الأول هو أفضل القرون من هذه الأمة ويكون معني الحديث الثاني أن أمتي كالمطر لا يدري أولها خير أم آخرها؟ في سعة الأرزاق وفي اتساع البالد والدولة. في أي القرون تتضاعف الخيرات وتتسع البركات أزيد؟

في أولها؟ أو في آخرها؟

فالقرون الأول خير القرون علي كلا الحديتين قرن الرسالة وقرن الخلافة الراشدة فيه نزل القرآن الكريم وكتب وفيه المصاحف مئات الآف وفيه حفظ كل أصول الشرع والدين وفيه قامت الدولة الإسلامية علي أساس متين. وفيه اتسع فتوحات المؤمنين فإن الدين والملك توأمان والدين أساس الملك وعمارة. والملك خادم الدين وحارسه. وقد قال النبي لعشيرته

وكان يقول لصحابته: ادعوكم إلي كلمة إن قبلتموها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم، وأدت إليكم الخراج.

عصر الرسالة كانت علي الحق بالضرورة وبشهادة الواقع وشهادة القرآن الكريم. وعصر الخلافة الراشدة كان علي الحق بشهادة النبي وشهادة كل آيات القرآن العظيم. والصحابة الكرام علي حسب شهد به التاريخ، كان لهم دين وأدب عظيم. وكان لهم وفور علم ومعرفة ونفاذ بصيرة واهتمام بالأمر كامل.

وفيهم نزل خاتمة سورة الفتح واسمهم في رسالة الهدي وظهور دين الحق علي الأديان كلها ثالث بعد اسم الله واسم رسول الله. وهذا قرآن كريم في القرآن العظيم لم يكن لنبي ولا ملك ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴿[الفتح: 28 - 29] والموصول بحكم النظم العربي معطوف علي المبتدأ فيكون ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ بشهادة الله رسلا من الله إلي العالمين: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

والصحابة الكرام والأمة الكريمة، بمالهم من القوة والبأس في ظهور الدين وغلبته علي الأديان، جمعوا في أنفسهم مثل التوراة وهو الشدة، وبمالهم من الرحمة اللين في حياتهم الأدبية والإجتماعية جمعوا فإن أنفسهم مثل الإنجيل وهو الرحمة الرأفة.

أما القرآن الكريم فقد ذكر في مثل الصحابة ومثل كل الأمة: ﴿كَزَرَ عَ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ خاتمة سورة الفتح (29)

ومثل القرآن الكريم في الصحابة الكرام وفي كل الأمة يدل عقلنا دلالة ظاهرة بالغة بليغة علي أن الله جل جلاله بقدرته وحكمته ينبت الأمة نباتًا حسنًا يكون كل دور منه أقوى من سابقه، وكل خلف يكون أحفظ وأعلم من سلفه وكل قرن من قرونه أكمل من قرينه حتي إذا استوي يكون علي سوقه، أصله ثابت وفروعه في السماء.

فبعد شهادة القرآن الكريم، وبعد استشهاد بمثل التوراة وبمثل الإنجيل الحكيم، وبعد مثل الله العزيز العليم والله المثل الأعلى فكل كلمة علي خلاف هذه الشهادات كلمة خبيثة ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۖ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: 26 - 27] ﴿ لِيُعْطِيَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: 29]

فالأمة معصومة عصمة نبيها معصومة في تحملها وحفظها وفي تبليغها وأدائها. الأمة قد حفظت كل ما بلغه النبي الكريم مثل حفظ النبي الكريم وبلغت كل ما بلغه النبي الكريم مثل تبليغ النبي الكريم.

حفظت كليات الدين وجزئيات الدين أصلاً وفرعاً. وبلغت كليات الدين وجزئيات الدين أصلاً وفرعاً. لم يضع من أصول الدين ومن فروع الدين شيء:

1 - حفظه الله.

2 - حفظه نبيه محمد.

3 - حفظته كافة عن كافة، عصرًا بعد عصر.

ولا يمكن اليوم أن يوجد شيء من الدين غفل عنه أو نسيه الأمة. فالأمة بالقرآن الكريم والسنة أعلم من جميع الأئمة. واهتداء الأمة أقرب من اهتداء الأئمة. وعلم الأمة بالقرآن وسنن النبي الكريم أكثر وأكمل من علم علي رضي الله تعالى عنه ومن علوم كل أولاد علي رضي الله تعالى عنهم.

ومن عظيم فضل الله علي نبيه، ثم من عموم وعميم فضل الله علي الأمة أن جعل في الأمة من أبناء الأمة كثيرًا هم أعلم بكثير من كل الأئمة ومن صحابة النبي الكريم صلي الله عليه وآله وسلم.

وهذا معلوم بالضرورة من نظام الله في خلقه. فإن كل لاحق يرث كل ما كان للسابق، ثم يكسب ويوفر. والأمة الكريمة ماقتصرت بل ورثت ثم وفرت ودونت.

والقرآن وعلومه، والسنة وعلومها، واجتهاد الأئمة وكل ثمرات كل اجتهادات الأئمة تناولها أيدينا بسهولة من كتب.

فابن الأمة اليوم في علومه هو الأمة في علومها كلها. وخلافه كسل دائم، واستصعابه هم رائب. كان صعبًا عسيرًا أو متعذرًا من قبل أما اليوم فهمة الأمة وجهودها العظيمة في عصور متوالية قديسرتة للذكر.

كل حادثة لا جواب لها في مذاهب الفقه إذا وقعت فالأمة لا تخلو ولا تحرم من حكيم حق وصواب جواب يريه الله لواحد من الأمة أو لجماعة من الأمة والأمة التي ورثت نبيها وصارت رشيدة ببركة الرسالة وبركة ختم الرسالة وانتقالها إلى الأمة، أرشد إلى الحق من كل إمام فإن الأمة مثل نبيها معصومة ببركة الرسالة وبركة كتابها، ومعصومة بعقلها العاصم. الأمة بلغت وصارت رشيدة لا تحتاج إلى إمام. رشدتها وعقلها يغنيها تمام الإغناء عن كل إمام.

كلية العلوم بإزاء عقول جميع الناس كما أن كلية الصناعات بإزاء قوي جميع الصانع. ولم يوجد علي وجه الأرض صانع يصنع كل المصنوعات، ويقوم بجميع حاجات الناس. وكذلك كلية علوم الدين بإزاء عقول كل الأمة. فكذلك معلوم بالضرورة أنه لم يكن يفتي في جميع علوم الدين. ولا يعلم التاريخ إمامًا من أولاد الإمام علي رضي الله عنه له علم يبلغ به إلى درجة إمام من أحاد أئمة الأمة في علم من العلوم.

أنا لا أنكر علي الشيعة عقيدتها أن الأئمة معصومة. وإنما أنكر عليها عقيدتها أن أمة محمد لم تنزل قاصرة ولن تزال قاصرة تحتاج إلى وصاية إمام معصوم إلى يوم القيامة. والأمة أقرب إلى العصمة والاهتداء من كل إمام معصوم، واهدي إلى الصواب والحق من كل إمام معصوم. لأن عصمة الإمام دعوي أما عصمة الأمة فبداهة وضرورة بشهادة القرآن الكريم ثم

الاحتيال بدعوي غيبوبة الإمام إلي أمد غير معلوم أضعف حيلة لا يرتكبها إلا من تيقن عجزه عن إثبات دعواه، واضمر في قلبه بطلان دعواه وشر حيلة في تكذيب ظهور الدين علي الأديان بنفس الرسالة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

وليس يمكن في العالم حادثة ليس لها جواب عند الأمة إن لم ندع نسخ القرآن الكريم. وعقل الإنسان لا يتصور احتياج الأمة إلي إمام معصوم، وقد بلغت رشدتها ولها عقلها العاصم، وعندها كتابها المعصوم، وقد حازت بالعصوبة كل موارث نبيها وفازت بكل ما كان للنبي بالنبوة.

والله لم يترك يوماً من الأيام أمة من الأمم سدي بل جعل لها من أبنائها أئمة. وجعل لها عقلاً يهديها ويعصمها. والعقل العاصم فوق الإمام في العصمة. والأمة بعد أن بلغت وصارت رشيدة ببركة الرسالة وختمها فإن عقلها ورشدتها يغنيها عن كل إمام بل هي الإمام. وأبنؤها يعقوها أئمة.

واحكم قول قاله قائل قول من قال:

أيها الغر إن خصصت بعقل فأسألنه. فكل عقل نبي. والعقل نور إلهي ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾. ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ فإن الإيمان يهدي القلب إلي العلم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾

فالعقل العاصم، والإيمان بل الله، وكتاب الله الذي نزل تبياناً لكل شيء يغني الأمة وأبنائها عن كل إمام معصوم.

ولو احتاجت إلي إمام معصوم ذرة احتياج لما ختم النبوة برسالة محمد صلي الله عليه وآله وسلم ولم يكن محمد صلي الله عليه وآله وسلم ختم النبيين إلا لزوال الاحتياج ببركة القرآن الكريم. ودعوي احتياج الناس إلي إمام معصوم تنافي تمام المنافاة حكمة الله في خاتم

النبوة، فإن الاحتياج إما لقصور في بيان الكتاب وإما لقصور في روح النبوة وإما لقصور في التبليغ فدعوي عصمة الإمام طعن في أصل الدين.

والشيعة بدعواها في الأئمة تصغر حق الأمة وقوة الأمة غاية التصغير. القرآن الكريم قد رفع ويرفع قدر الأمة وقوة الأمة مكانًا عليًا دونه مكان ادريس ويعلي بشأن الأمة وحرمتها درجات. دونها كل درجة وقد تقدمت في هذا الكتاب آيات تشهد بذلك. وأريد الآن أن اتلو آيات من الكتاب بشرتنا بما ستبلغه الأمة بقوتها وعقلها واجتهادها في مستقبل الأيام:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة لقمان: 27)

فرض في القرآن الكريم بليغ، له إشارة وبشارة وإرشاد: لو كانت كل ما في الأرض من شجرة أقلامًا وكانت كل بحار الأرض يمدّها بعدها سبعة أبحر مدادًا ما نفدت كلمات الله التي ستكتبها الأمة تداركًا لما كان لنبيها من الأمية.

وهذا في مستقبل الأيام قوة كل الأمة، بل قوة كل الإنسانية ومحمد نبيها والقرآن الكريم كتابها. وكل هذا ليس علي مجرد الكلام والكلمات فقط. بل منه أيضًا إن وجه الحكمة وتأمل عجائب الصنعة وإدراك اتقان الخلق لا ينفد، بل لا يزال يظهر باجتهد عقول الأمة والإنسانية.

ومن أعجب ما أراه في نسق الآيات إن آية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف: 110] بعد آية: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109] فإن النبي الكريم العظيم جعل نفسه في هذه الآية الكريمة مثل فرد من أمته في تلك الأيام فيكون الفرد من أمته مثل نبيها. وهذه درجات رقي إلي كمال لا أعلي منه. ذكره الكتاب الكريم بعد قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: 107 - 108]

فالأمة أكرم وأعز وأرفع من أن تكون تحت وصاية وصي ومن أن تبقي قاصرة إلى الأبد.

أخبار الآحاد

قد كان مسني طائف من النسيان. فانساني مدة مديدة بيان مسألة مهمة في أسانيد متون السنن. هي مسألة أخبار الآحاد وقد فصلتها كتب أصول الفقه وكتب أصول الحديث تفصيلاً حسناً فيه طول وفيه انتشار. فتذكرت وأبصرت إذ أخذت في تصحيح احجار المطبعة. فاجملت إفادة أهل العلم في هذه المسألة إجمالاً يوضح روح المسألة وجوهر الإفادة. ولهذا العذر الطبيعي تأخر بيان المسألة ووضعها في ختام الكتاب.

والأصل الأساسي في حكم الإسلام: إن الإنسان وكل فرد من بني آدم له عند الله كرامة إلهية. (17: 70) ثم عنده من الله أمانة إلهية فشرع الإسلام في شؤون الإنسان هو التأمين المطلق: يعتبره صادقاً في أقواله وأميناً في أفعاله وهذا الأصل الأساسي رسمه الكتاب الكريم لأتمته ليكون أدباً لأهل الإسلام بين الأمم علي وجه الأرض وهذه الفضيلة ومثل هذه للسكينة أنزلها الله علي قلوب المؤمنين وألزمهم كلمة التقوي وكانوا أحق بها وأهلها. وهو المقصود من تلقين أهل الكلام في كتب العقائد: إن البشر أفضل من الملك الذين: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (66: 6) (16: 50)

وهذا الأصل الأساسي هو: ﴿الصراط المستقيم﴾ هو ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ وهو ﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ (42: 53) وهو المثل الأعلى ﴿في سعادة الإنسان دنيا وآخرة. وقد كان هذا المثل الأعلى سيرة قرون الإسلام الثلاثة في عهد الرسالة وعهد الخلافة الراشدة.

ثم ارتفع المثل الأعلي بذهاب أهله. فرجعت الحياة الدنيا إلي مجراها القديم: فشا الكذب و ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: 41] وهذه الكتب كتب أهل العلم تنطق عليهم بالحق. إذ كانت تستسخ ما كانوا يعملون.

والعلم الذي يناله الإنسان بالسماع والتعلم ثلاثة:

1 - علم لا يمكن حصوله إلا بالسماع والتعلم مثل الأمور الغائبة في ماضي من الوقائع أو في ماسيقع من أحوال الإنسان في الحياة الأبدية اشترط أهل العلم عصمة المخبر بأن يكون نبياً ثبت صدقه.

2 - علم نظري عقلي، وليس في الفطرة ما يرشد الإنسان إلي الأدلة فيه. بل لابد من التعلم. لا يقلد الإنسان المعلم، بل ليرشده المعلم إلي طريق العلم. ثم يرجع العاقل فيه إلي نفسه. فيدركه بفكره ونظره مثل العلوم الطبيعية والرياضية، ومثل الصناعات والحرف ولم يشترط أحد في المخبر والمعلم شرطاً. ولو كان المعلم المخير أضل خلق الله وأكذبه.

3 - الثالث العلوم الشرعية الفقهية في معرفة الحلال والحرام والفرض والمندوب. وأصل هذا العلم هو السماع من الشارع والسماع من الشارع المعصوم يوجب العلم. والسماع من الشارع لا يمكن لكل واحد ولا يمكن في كل حادثة وفي كل واقعة .

والإكتفاء بالظن ضروري في طرفين:

1 - في غائب لم يسمع من لسان الشارع وإنما سمع من مبلغ سمع. فوجب عليه العمل بالظن للضرورة.

2 - الطرف الثاني في نفس الصورة الفقهية وفي نفس الواقعة. فإن الوقائع والحوادث لاحد لها ولا نهاية. والنصوص متناهية محدود: فاعمال الرأي ضروري لا بد من تحكيم الظن في العمل بالنصوص. كان ذلك كذلك في عهد الرسالة. إذ لم يمكن أو لم يجب اسماع كل أحد. وإذ لم يستوعب نصوص الشارع كل الحوادث. والإنسان في جميع أموره في كل عصوره كان يعول علي الظنون. فالتعويل علي الظنون أمر طبيعي فطري للإنسان في كل أموره.

وإمكان الخطأ في الظن لم يكن يزلزل عزم العامل في اقدامه. وإذ وجب العمل بالظن فالخطأ في تفاصيل الشرعيات مرفوع.

فأخبار الآحاد تفيد غلبة الظن وتوجب العمل. وقد تفيد اليقين. وهو الأكثر. والأكثر السنن الثابتة هي أخبار آحاد.

وظواهر النصوص: آيات الكتاب الكريم ومتون السنن الثابتة كلها بينة بلسان عربي مبين تفيد ظاهر معانيها إفادة قطعية. والباطنية، وهي شر فرقة ماكرة مضلة، يهملون العقل تما الإهمال، ويطلبون النظر والتفكر تمام الابطال ويردون نصوص الشارع الحكيم قبيح الرد بأنها قشور يجب نبذها، وإن لها باطنًا لا يعلمه إلا إمام يدعون عصمته، ثم يوجبون علي الأمة أن تتعلمه من ذلك الإمام. والإمام غائب معدوم لم يره أحد ولن يراه أصلًا أبدًا.

والباطنية مذهب ظاهره الرفض بكل معانيه:

1 - رفض القرون الثلاثة الفاضلة في أول عصر الإسلام.

2 - رفض العقل.

3 - رفض النقل.

وباطنه المكر السيء والجهل المحض.

مفتحه حصر العلوم في قول الإمام المعصوم (المعدوم) وعزل العقول من أن تكون مدركة للحق. وغايته إبطال الإسلام وكتابه الكريم. أما هذا الكتاب كتاب السنة فدعواه:

1 - إن ظاهر نصوص الشارع كلها.

2 - وآحاد السنن الثابتة.

3 - ومستفيضات السنن ومتواتراتها كلها حجة قطعية شرعية علي حد سواء.

وتحيتنا لأمم الإسلام في هذا الكتاب سلام. وآخر دعوانا:

أن الحمد لله رب العالمين.

وصلي الله علي خير خلقه وآله وصحبه وصاحبيه أجمعين.

يوم الاثنين 15 من جمادي الاخر سنة 1364 هـ و28 من مايس سنة 1945

قل هذه سبيلي

خطباء المنابر والواعظون في المحافل لم يزالوا يلقنون الأمة في طوال العصور أباطيل زعوم وسموم أوهام لم تنزل تستتبع سكتة القلوب وصرع العقول وجمودها. وأقل ما لقنوه ضرراً إن الإسلام بدأ ضعيفاً وسيعود ضعيفاً كما بدأ وإن الإسلام لا يزال ينحط آفلاً إلي الانقراض والنعاد وإن باب الاجتهاد قد سد تمام الانسداد. ويمثل هذه التلقينات قد فتحو أبواب الإلحاد وهم لا يشعرون ثم بها قد نبئت جماعة بل جماعات تتفلسف وتتحكم (تدعي الفلسفة وتدعي الحكمة) تقول : إذا اختصرت فئة أو أمة فلا فائدة في نصرها. وإذا مالت فكرة إلي الأفول فلا تدافع عنها فالعقل في المختصر مثل الطب في الموت، والدفاع في الآفل إتيان الشمس من مغربها.

هذه هي مزعوم الأكثرية في الأزمنة المتأخرة. وإني لم أزل أنكرها شديد الإنكار فإن كل هذه التلقينات وكل هذه الرغوب الباطلة هي أمور غامضة ليس لها في أصلها قرار. وإنما هي فساد ظهر في البر والبحر بما كسبته أيدينا وخلقته أوهامنا وفي اقتدارنا وفي اختيارنا دفعها ورفعها. وذلك يسير غير عسير. وما ذلك علي الله بعزيز.

وإني أوقن حق الإيقان إن الله جل جلاله يستحق وعده الذي أقسم عليه في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ سورة الصافات: (171 – 173)

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (57: 21) ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ سورة الفتح

والتوبة والصف. ﴿ نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ مريم (40) ﴾ ﴿ أَنْ
الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ﴿ (21: 105).

كل هذه وعود إلهية في كتابه الكريم إيفاءها وتحقيقها وتوفيتها علي أمانة أمة صاحب
القرآن العظيم. ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ ﴿ (14: 47) وكل تلك التلقينات
تلقينات المنابر والمحافل كلها ظلمات بعضها فوق بعض ستزيلها عن القلوب والعقول أنوار
هذه الآيات البينات. ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ ﴿ [الروم: 6].

ومن يتقول أن الإسلام بدأ ضعيفاً وسيعود ضعيفاً كما بدأ عمي وعمه. فإن كل مانراه
علي وجه الأرض في المجتمع الإسلامي وفي عالم التمدن في اكتشافاته العجيبة واختراعاته
الهائلة وفي جهوده في العلوم والصناعات العظيمة كلها أثر من آثار روح الإسلام. ولم يظهر
إلا بعد أن ارسل الله رسوله بالهدي ودين الحق رحمة للعالمين.

وضعف أمة من الأمم وزوالها لا يتأثر به روح الإسلام ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ﴿ [فاطر: 19 - 20] ﴾ ﴿ والله غالب علي أمره ﴾ ﴿ إن
تنصروا الله ينصركم ﴾ ﴿ وإن تنصركم الله فلا غالب لكم ﴾ ﴿.

كل هذه عقيدتي وكل هذه دعواي وكل هذه غايتي

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

خاتمة الطبع

الحمد لله الذي رفع أقدار العلماء وأعظم شأن الفضلاء والصلاة والسلام علي سيدنا محمد سيد النبيين وأفضل السابقين والآخرين وعلي آله وأصحابه المهتمدين المكرمين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أما بعد فقد تم بحمد الله طبع هذا الكتاب الذي لم ير مثله في الكتب أحد من أولي الألباب لو كتب بماء الذهب الأبريز لكان به حقيقاً ولو **اتبع بالشدة الاحق وهو لكون ذلك** خليقاً كيف لا وقد صنفه موسي جار الله الذي لا ينطق عن الهوي إلا بينات من الهدى **والقرآن الكريم** أو بشواهد من سنن سيد المرسلين صلي الله عليه وعلي آله وأصحابه أجمعين فجزاه الله خير الجزاء وجعل آخرته خيراً من الأولى بمنه وفضله وكرمه.

وأنا العبد المفتقر أحوج الخلق إلي الحق العاصي عبيد الحق **الفساوري ثم الداو منكوي** كاتب هذا الكتاب وغيره من كتب المصنف.

16 جمادي الآخر سنة 1364 هـ 29 مي سنة 1945

